الباب الثالث

المدينة فى دول الشرق الأوسط

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثامن

من المدينة العتيقة الى المدينة الحديثة : نظرة تاريخية

من الشرق الاوسط ظهرت أقدم وأعرق المراكز الحضرية التى عرفها العالم • فما نزال نشاهد كوكبة من المدن القديمة ابتداء من وادى النيل بمصر الى منطقة ما بين النهرين فى العراق • واذا كان الفتح الاسلامى قد أضاف الى رصيد الشرق الاوسط مدنا جديدة ، الا أنه قد منح المدن القديمة مزيدا من النمو والازدهار • وبينما كانت المدن العربية تناضل من أجل البقاء خلال العصور الوسطى ، كانت المدن الاسلامية فى الشام والعراق ومصر وايران تلعب أدوارا سياسية وثقافية ودينية واقتصادية حاسمة ، الى الحد الذى يجعلنا نذهب الى أن الاسلام يعد — بحق — دين المدن • واذا كان ماكس فيبر Weber قد أوضح فى كتاباته[1] الدور الذى لعبته البروتستانتية فى نشأة الرأسمالية وما صاحبها من ظواهر (كالتصنيع والتحضر) ، فاننا مانزال بحاجة الى دراسة متعمقة للعلاقة بين الاسلام والتحضر • فخلال فترة التوسع الاسلامى أسهمت المدن الاسلامية فى تطوير ونشر « ثقافة حضرية » بكل ما ينطوى عليه هذا التعبير من معان[2] • وقد يختلف المؤرخون وعلماء الاجتماع حول تحديد معالم الحياة الحضرية فى المدن الاسلامية المبكرة ، لكننى أعتقد أن حدة هذا الاختلاف قد تخف اذا ما تعلق الامر بالعلاقة السببية بين الاسلام والنمو الحضرى •

إن دراسة المدن الاسلامية المبكرة تتطلب منذ البداية تحديدا دقيقا

---

(1) Max Weber; The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism; translated by Talcott Parsons; Ne wYork; 1948.

(١) انظر جمال حمدان ، المدينة العربية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، جامعة الدول العربية ، ١٩٦٤ .

للوظائف التى كانت تؤديها • ويمكننا أن نشير فى هذا المجال الى بعض منها • فلقد كانت هذه المدن تمثل أسواقا تجارية رئيسية ، وعواصم سياسية مؤثرة ، وقواعد عسكرية ثابتة ، فضلا عن الدور الدينى الحاسم الذى كانت تؤديه بوصفها مقصد الحجاج من كل مكان • بيد أن ذلك يجب ألا يدفعنا الى التعميم • فلقد أوضح حورانى[1] Hourani أن المدن التى أنشأها الفاتحون العرب تختلف عن تلك التى كانت قائمة قبل الفتح الاسلامى • ومعنى ذلك أن المدن الاسلامية القريبة من البحر المتوسط والتى خضعت للمؤثرات الاغريقية والرومانية تختلف عن المدن الاسلامية الشرقية التى ظهرت فى فارس وتركيا • واذا كانت هذه المدن قد اختلفت من مكان لآخر ، فانها قد اختلفت أيضا من زمان لآخر على نحو ما سنشير فى موضع لاحق • والقضية التى تعنينا هنا بالدرجة الاولى تتعلق بوجود خصائص مشتركة تجمع بين المدن الاسلامية التى ظهرت فى منطقة الشرق الاوسط ، ثم تأثير هذه الخصائص على الحياة الحضرية الحديثة • ولا نستطيع فى هذا المجال مقاومة اغراء المقارنة بين المدن الاسلامية والمدن الغربية خلال العصور الوسطى • فلقد أوضح ماكس فيبر Weber فى مؤلفه « المدينة » The City أن المدن الغربية كانت تبدو وكأنها قلاع محصنة ، لكنها كانت تلعب ــ فى نفس الوقت ــ أدوارا اقتصادية وسياسية هامة • فهى موطن الاسواق ، ومصدر التشريعات ، ومقر السلطة السياسية[2] • أما المدن الاسلامية خلال العصور الوسطى فقد نشأت أيضا نشأة حربية حيث كانت الاسوار المحيطة بها رمزا للحماية والدفاع ، كما أنها كانت تمثل مراكز تجارية هامة • ويبدو أن البعد السياسى كان من أهم الابعاد التى ميزت بين المدن الغربية والمدن الاسلامية خلال العصور الوسطى • فبينما كانت الاولى تشهد بناء طبقيا جامدا ، كانت الثانية تؤكد المساواة بين المواطنين سواء بين سكان المدن أو بينهم وبين سكان الريف •

---

(1) A. Hourani; «The Islamic City in the Light of Recent Research»; in The Islamic City; ed. A. Hourani & S. Stern; London; 1970.

(2) Max Weber; The City; New York; 1958.

ولقد أوضح حورانى فى معرض مناقشته لطبيعة المدن الاسلامية الدور الذى لعبته المناطق الريفية المحيطة بها فى تدعيم نموها الاقتصادى ، وان المناطق الريفية كانت بحاجة الى « حاكم حضرى » يسيطر عليها ويدير شئونها • والواقع أن الضرائب التى كان يدفعها الفلاحون قد أسهمت فى تحقيق مزيد من النمو الحضرى[1] •

ويبدو أن هناك قدرا ملحوظا من الاتفاق بين المؤرخين على أن المدن الاسلامية قد شهدت طبقتين أو جماعتين متميزتين : الاولى تضم كبار التجار ، والثانية تتألف من العلماء أو رجال الدين الاسلامى[2] • وعلى الرغم من الروابط العديدة التى كانت تربط بين هاتين الجماعتين ، الا أنهما لم يشكلا — فى أى وقت من الاوقات — تحديا صريحا للسلطة السياسية • لقد كان الخليفة أو الحاكم الاسلامى يعتمد على جماعات من الموظفين لادارة الشئون العامة والاشراف على مختلف نشاطات الدولة ابتداء من العدل حتى الدفاع • أما علاقة الحاكم برؤساء القرى وشيوخ أحياء المدن والصناع وأهل الذمة ، فلم تكن تتجاوز جباية الضرائب والجزية • والملاحظ أن معظم كبار الموظفين التابعين للخليفة أو الحاكم كانوا من أصول حضرية ، مما اتاح فرصا عديدة للاتصال بالسكان دون الاستعانة بتنظيمات رسمية متطورة • ويبدو أن الفتح الاسلامى لم يكن مرتبطا — فى معظم الاحيان — بظهور تنظيمات بيروقراطية ضخمة ومتطورة تتلاءم مع النشاطات العديدة المعقدة التى فرضتها ظروف التطور الاقتصادى والاحتكاك الثقافى • فالطوائف الحرفية والاسواق والحمامات والمجالس البلدية وجدت جميعها فى منطقة الشرق الاوسط قبل الفتح الاسلامى • وربما كانت الاسرة هى أهم جماعة اجتماعية شهدتها المدن الاسلامية خلال العصور الوسطى ، حيث كانت تؤدى أدوارا مهنية وتعليمية وسياسية بالغة الاهمية • واذا كانت هذه المدن قد عرفت صورا مبكرة من التخطيط الحضرى

(1) A. Hourani; «The Islamic City.....»; op. cit.

(2) S. M. Stern; «The Constitution of the Islamic City»; in The Islamic City; op. cit; p. 29.

كالميادين الكبيرة والحدائق العامة ، فان ذلك يعود الى النزعات الخيرية لبعض الحكام أكثر مما يعود الى اعتبارات بيئية وتنظيمية .

وهناك ارتباط ملحوظ بين البناء الايكولوجى والبناء الاجتماعى للمدن الاسلامية ، على الرغم من العوامل التى أدت الى تباينات هامة فى هذا المجال كالموقع والمناخ والمبانى والسمات الثقافية عموما . فلقد كانت المدن الاسلامية الاساسية مقرا للسلطة السياسية ، ومركزا لادارة الشئون الدينية ، وحصنا قويا للدفاع القومى . وفى هذه المدن كان يوجد مقر الحاكم الذى يتخذ فى بعض الاحيان شكل ضاحية منفصلة كما هو الحال بالنسبة للفسطاط فى مصر . وقد يوجد هذا المقر داخل تجمع حضرى قائم بالفعل كما هو الحال بالنسبة لقصر توبكابى فى اسطنبول . كذلك فلقد كان « المسجد الكبير » والسوق من أهم معالم هذه المدن . والواقع أن « المسجد الكبير » فى المدينة الاسلامية كان يؤدى وظائف متنوعة : فهو مكان للصلاة والعبادة ، وهو مركز ثقافى وتعليمى ، وهو أيضا مقر للتقاضى ، بل انه كان مجالا لكثير من النشاطات الاخرى كتناول الطعام والترفيه [1] . ويرتبط بهذا « المسجد الكبير » عددا من المدارس الدينية التى تتولى تدريس علوم الدين الاسلامى . وباستثناء « المسجد الكبير » وقصر الحاكم لم تشهد المدن الاسلامية المبكرة مبانى ضخمة مميزة . وفى بعض الاحيان كانت توجد مستشفى بجانب هذا المسجد[2] . أما الحمامات فكانت بمثابة أماكن تتم فيها العلاقات الاجتماعية غير الرسمية من خلال عمليتى الاستحمام والتدليك . ويعد السوق أحد الملامح الايكولوجية المميزة للمدن الاسلامية . ففى داخله مجموعة كبيرة من المحلات التجارية التى تتفاوت فى أحجامها ونشاطاتها . وغالبا ما تكون منطقة السوق ذات

---

(1) V. t. Costello; Urbanization in the Middle East; Cambridge Univ. Press; London; 1977; p. 10.

(2) O. Graber «The Illustrated Maqamat of the Thirteenth Century : The Bourgeoisie and the Arts»; in The Islamic City; op. cit; p. 213.

أسقف قماشية لحماية الناس من حر الصيف ومطر الشتاء ، كما أنها تضم ميدانا داخليا وعدة بوابات تقفل فى المساء خوفا من نهب اللصوص وقطاع الطرق • أما مساكن عامة الناس فى هذه المدن الاسلامية فكانت نمطية إلى حد كبير • اذ كانت هذه المساكن شبيهة بتلك التى نألفها الآن فى مدن دول الخليج العربية وبعض المدن الايرانية : طابق أو طابقين يحيط بهما فناء صغير • ويبدو أن هذا النمط من المسكن يتلاءم مع ظروف المناخ وطبيعة الحياة الاسرية الاسلامية • ومن خلال التصميمات الهندسية للمساكن المختلفة التى وجدت فى المدن الاسلامية يمكننا أن نفهم كيف ان الظروف المناخية القاسية ــ وعلى الاخص درجة الحرارة العالية فى الصيف ــ قد أدت الى اقامة منافذ ومساقط للهواء البارد ، فضلا عن المبالغة فى عدد النوافذ ، والافادة قدر الامكان من سقف المسكن خلال الامسيات الصيفية • ومن الواضح أن خطة المساكن فى تلك الفترة كانت تتلاءم تماما مع الظروف الخاصة للاسرة الاسلامية • فالرجال كانوا يجلسون فى حجرات الضيافة ، بينما كانت النساء (أو الحريم) تقبع فى حجرات خاصة نائية • وكان ذلك يتطلب فى بعض الاحيان أن يكون المسكن من طابقين يخصص الادنى منه لاستقبال الضيوف ، بينما يخصص الاعلى لاقامة النساء •

وتعد مدينة القاهرة خلال العصور الوسطى من أبرز الامثلة المعبرة عن طابع المدن الاسلامية خلال تلك الفترة • ففيما بين سنتى ٩٧٠ و ١٢٥٠ ميلادية خضعت مصر لحكم الفاطميين ، ونمت كنتيجة لذلك مدن البحر المتوسط بسبب انتعاش التجارة وسيولة المواصلات • والواقع أن المجتمع الحضرى المصرى قد شهد خلال تلك الفترة حركة تجارية واسعة النطاق ارتبطت بتسامح دينى وحرية ثقافية • أما مدينة القاهرة فكانت تخضع لسيطرة حاكم عسكرى يستعين بقوات الامن والقضاة فى تحقيق النظام والاستقرار • وكانت المدينة تنقسم فى ذلك الحين الى عدة مناطق أو شياخات • ولكى يضمن الحاكم تحقيق مزيد من السيطرة على المدينة ، كان يستعين بقوات سرية أو « مخبرين » تنقل اليه معلومات عن الخلافات

التى تنشأ بين الجماعات الدينية والسياسية المتصارعة[١] • أما العلاقه بين مدينة القاهرة والمناطق الريفية فكانت علاقة ذات طابع شخصى فى المحل الاول • فكثير من أغنياء المدينـــة كانوا يملكون أراضى زراعية فى القرى المصرية ، بينما كان الفلاحون يقومون بأقسى الاعمال البدنية • ويبدو أن سكان مدينة القاهرة كانوا يبدون نفورا من الثقافـــة الريفية ، حتى أن زواج قاهرى من ريفية كان يبدو أمرا صعبا ، ان لم يكن مستحيلا[٢] • وخـــلال تلك الفـــترة كان بالامكان تقسيم مدينـــة القاهرة الى طبقتين أساسيتين : الاولى هى الطبقة العليا التى تضم كبار رجـــال الاعمال ، والثانية هى الطبقة الدنيا التى تضم العمال اليدويين • والواقع أن موظفى الدولة لم يصلوا الى حد تشكيل طبقة إجتماعية محددة المعالم ، مما ساعد على ظهور الاستقطاب الطبقى الذى حال دون ظهـــور طبقة اجتمـــاعية وسطى • والملاحظ أن المكانات الاجتماعية فى مدينة القاهرة كانت موروثة الى حد كبير • فالابناء يميلون الى العمل فى نفس المهن التى يعمـــل بهـــا آباؤهم ، وان كان التعليم الدينى قد سمح لبعض الابناء من الحصول على مكانات اجتماعية رفيعة • ومن بين الرموز التى كانت تشـــير الى المكانة الاجتماعية المرتفعة اقامة الولائم والبذخ فى المناسبات العامـــة • ويبدو أن القاهريين قد ربطوا كثيرا من المهن بالمكانة الاجتماعية المنخفضة كالكناسين ومنظفى الحمامات ، بل ان الحرف اليدوية قـــد بدت فى بعض المناسبات وكأنها تتخذ وضعا متدنيا داخل البناء الاجتماعى • ولقد أوضح باير Baer أن المرأة فى مدينة القاهرة خلال العصور الوسطى كانت تعمل فى الصناعات الحرفية الى جانب أعبائها المنزلية ، بل ان هذه المدينة قد عرفت عـــددا

---

(1) S; D; Goitein; «Cairo : An Islamic City in the Light of the Geniza Documents»; in I. M. Lapidus; (ed); Middle Eastern Cities; Berkeley and Los Angeles; 1969; p. 91.

(2) S; D; Goitein; A Mediterranean Society : The Jewish Community of the Arab World; Vol. 1 : Economic Foundations; Cambridge; Mass: 1967.

ملحوظا من الممرضات والخياطات والماشطات[١] .

أما الاقليات الدينية (اليهودية والمسيحية) التى عاشت فى مدينة القاهرة خلال تلك الفترة ، فكانت تميل الى تشكيل مجتمعات محلية مستقلة تعيش على مقربة من المعابد والكنائس . ولقد عاشت هذه الاقليات فى ظل تسامح دينى مكنها من مشاركة المسلمين فى كثير من النشاطات الاقتصادية والثقافية . أما حرية العبادة لهذه الاقليات فكانت مكفولة بشرط أن تدفع الجزية المفروضة عليها ، وألا يصدر عنها مايهدد النظام السياسى . ونظرا لحرص هذه الاقليات على الارتباط بالحكام السياسيين ، فانها قد تمتعت بنفوذ كبير حتى بدت وكأنها تشكل دولة داخل الدولة . ولقد استمرت هذه الظروف حتى بداية القرن الثالث عشر ، حينما بدأت النزعة الاقطاعية العسكرية تمارس سيطرتها على مصر . وباقامة مدينة الفسطاط اختفت العزلة المكانية الواضحة بين المسلمين والمسيحيين واليهود حيث أصبحت مساكنهم متجاورة ، كما ظهر امتزاج طبقى حضرى واضح حينما تجاورت مساكن الحرفيين ذوى المكانات الاجتماعية المتباينة[٢] . وهناك شواهد تاريخية عديدة تشير الى أن عددا كبيرا من مساكن هؤلاء الحرفيين قد تحولت الى ورش صغيرة للغزل والنسيج . بيد أن ذلك كله لا يعنى أن الفسطاط لم تكن تخضع لخطة حضرية . فلقد ظلت الطبقة العليا تقيم فى مناطق خاصة وتعيش فى مساكن متميزة الى حد بعيد اذا ما قورنت بالطبقة الدنيا .

ويبدو أن كثيرا من الخصائص الحضرية التى ميزت القاهرة خلال تلك الفترة قد وجدت ــ بدرجات مختلفة ــ فى المدن الاسلامية الاخرى كدمشق وبغداد[٣] . فهناك شواهد تاريخية تشير الى أن هذه المدن قد

---

(1) G. Baer; Studies in Social History of Modern Egypt; Chicago; 1969.

(2) R; Levy; The Social Structure of Islam; Cambridge; 1962.

(3) P. Hitti; History of the Arabs from the Earliest Times to the Present; London; Macmillan & Co LTD; 1960; pp. 343-351.

شهدت ارتفاعا ملحوظا فى عـدد العاملين بالصناعات الحرفية • فلقـد اشتهرت البصرة بصناعة الصابون والزجاج ، كما عرفت القاهرة بصناعة الكتان والمشغولات اليدوية • كذلك فلقد شـهدت هذه المدن نموا كبيرا فى عدد العاملين بالمهن الكتابية والادارية بسبب التوسـع فى اقامة الدواوين المختلفة • ومن بين المهن الهامة التى ظهرت خلال تلك الفترة مهنة «الكاتب» التى كانت تختص باذاعة المراسيم والبراءات وتحرير الرسـائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة بعد اعتمادها من الخليفة ؛ ومهنة « الحاجب » التى كانت تتولى تقديم الناس للخليفة طبقا لمكاناتهم وأهمية أعمالهم • ومن خلال الكتابات المختلفة المتاحـة عن هذه الفترة يمكن القول ان الوظائف السياسية كانت تحتل قمـة البناء الاجتماعى • فعلى سبيل المثال نجد ابن المدبر يفرق بين أربع طبقات أساسية هى : الخلافة ، والوزراء والكتاب ، وأمراء الثغور وقواد جيوشهم ، وأخيراً القضاه[1] • أما المكانة الاجتماعية للتجار وأصحاب الحرف فكانت موضع خلاف • فبينما نجد ابن الفقيـة يضعهم فى أدنى السلم الاجتماعى ؛ نجد اخوان الصـفا يشيرون فى شىء من المبالغة الى أن « الناس كلهم اما صناع أو تجار »[2] • ويفسر ابن خلدون التنوع المهنى الذى شهدته المدن الاسلامية قائلا : « فاذا زخر بحر العمران وطلبت فيـه الكماليات ، كان من جملتها التـأنق فى الصـنائع واجادتها ، فكملت بجميع متمماتها وتزايدت صنائع أخرى معها مما تدعـو اليه عوائد الترف وأحواله من جزار ودباغ وخراز وصائغ وأمثال ذلك • وقد تنتهى هذه الاصناف اذا ما استبحر العمران الى أن يوجد منها كثير من الكمالات ، والتأنق فيها فى الغاية ، وتكون من وجـوه المعـاش فى المصر لمنتحلها ، بل تكون فائدتها من أعظم فوائد الاعمال ، لما يدعو اليه الترف فى

---

(١) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، العصر العباسى الثانى فى الشرق ومصر والمغرب والانـدلس ، القاهرة ، النهضة المصرية ، الجزء الثالث ، ص ٢٧١ وما بعدها .

(٢) فون جرونباوم ، حضـارة الاسلام ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، القاهرة ، مكتبة مصر ، بدون تاريخ ، ص ٢٧٦ .

المدينة مثل الدهان والصفار والحمامى والطباخ والسفاح والهراس ومعلم الغناء والرقص وقرع الطبول على التوقيع ، ومثل الوراقين الذين يعانون صناعة انتساخ الكتب وتجليدها وتصحيحها ، فان هذه الصناعة انما يدعو اليها الترف فى المدينة من الاشتغال بالامور الفكرية وأمثال ذلك ...»[١] .

على أن علامات الانهيار الحضرى ما لبثت أن ظهرت واضحة على المدن الاسلامية فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر . وأحد أسباب ذلك ظهور الدولة العثمانية وانهيار الامبراطورية البيزنطية فى منتصف القرن الخامس عشر . لقد أطاح العثمانيون بالمماليك وفرضوا سيطرتهم على الشرق الاوسط بأكمله باستثناء فارس وبعض الاراضى المتنازع عليها مع الامبراطورية الرومانية . وفى ظل حكم العثمانيين بدأت الطوائف الحرفية فى المدن الاسلامية تتعرض لتغيرات كبيرة لعل أبرزها خضوعها لتفرقة حادة بين كل من سادة الحرف والصناع والصبية الصناعيين . ومن خلال ذلك بدأت هذه الطوائف تمارس احتكارا تجاريا لكثير من السلع[٢] . والواقع أن الدولة العثمانية قد أقامت تحالفا قويا مع هذه الطوائف بهدف إحكام السيطرة على النشاطات الاقتصادية والسياسية فى البلاد . ويبدو أن الطوائف الحرفية التى كانت قائمة فى المدن الفارسية قد شهدت نفس هذه الظروف ، اذ بدت وكأنها صورة مماثلة للطوائف التركية[٣] . وعلى أية حال فان الانجازات الحضرية الاسلامية (السياسية والعسكرية والثقافية) قد وصلت الى قمة ذروتها فى أوائل القرن السادس عشر ، حينما اعتقد المسلمون أنهم ليسوا بحاجة الى معرفة أى شىء عن « الغربيين البرابرة » . ومع ذلك فان القضية التى مانزال نفرض نفسها هى استمرار الاتساع المكانى للامبراطورية العثمانية

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، القاهرة ، لجنة البيان العربى ، ص ٩٣٢ .

(2) H. A. Gibb; Islamic Society and the West; London; 1950.

(3) Issawi; The Economic History of the Middle East; Chicago; 1966.

برغم الانهيار الدائم فى الحياة الحضرية للمدن التابعة لها • فلقد شهدت المدن الاسلامية خلال تلك الفترة انخفاضا ملحوظا فى أعداد سكانها بسبب الغزوات العديدة التى تعرضت لها من جانب الصليبيين والمغول والاتراك • وتشير البيانات التاريخية إلى ان عدد سكان مدينة بغداد خلال القرن السادس عشر كان يتراوح فيما بين ٥٠٠ر٠٠٠ و ١٠٠ر٠٠٠ نسمة ، وهو رقم لا يصل الى عُشر الرقم الذى وصل اليه سكان هذه المدينة فى وقت لاحق • ولقد أوضح شارل عيسوى أن سكان مصر خلال القرن الثامن عشر لم يكن يزيد عن ٢ر٥ مليون نسمة ، بينما كان يصل الى أربعة ملايين نسمة خلال القرن الرابع عشر [١] • كذلك فلقد انخفضت أعداد السكان فى كل من سوريا والعراق وشبه الجزيرة العربية ، كما تقلصت مساحة الاراضى المنزرعة وتعرضت التجارة للانهيار السريع • واذا كانت الاسكندرية وطرابلس (الغرب) وبغداد قد ظلت كمراكز تجارية هامة خلال القرن السابع عشر ، فان ذلك يعود الى ظروف عارضة تشكل الاستثناء من القاعدة •

ومن بين العوامل الاقتصادية التى أدت الى الانهيار العام للحياة الحضرية فى المدن الاسلامية استنفاذ مصادر الاخشاب • فلقد كانت الصناعة الحرفية الخشبية أحد الصناعات المزدهرة فى هذه المدن ابتداء من بناء السفن حتى صناعة المحاريث والفؤوس • على أننى أعتقد أن الظروف الخارجية والداخلية التى تعرضت لها المدن الاسلامية كانت من أهم عوامل انهيارها • فلقد أدت الغزوات الصليبية والمغولية والتركية الى تحويل الدول العربية الى مجتمعات عسكرية « اقطاعية » • فبينما كانت الامبراطورية العثمانية تتعرض لضعف سياسى وعسكرى بسبب حروبها المستمرة ، تعرضت ــ فى نفس الوقت ــ لهزات اقتصادية خطيرة بسبب النمو الصناعى والتجارى الذى بدأت تحققه الدول الاوربية فى ذلك الحين[٢] • وهكذا بدأت السلطة المركزية للامبراطورية تتعرض للضعف

(1) Ibid; pp. 3-4.

(2) Ira M. Lapidus; (ed.) Middle Eastern Cities; University of California Press; Berkeley; 1969; J. V.

الشديد ابتداء من القرن السابع عشر ، كما أبدت بعض الاقاليم رغبتها فى الاستقلال • وفضلا عن ذلك بدأت المدن الاسلامية خلال تلك الفترة تشهد تدهورا علميا وثقافيا لعل من أبرز ملامحه زيادة التزمت الدينى ، وضعف روح الاجتهاد فى تفسير النصوص القرآنية ، وعدم الحرص على ملاءمة القواعد الدينية مع الظروف الاقتصادية والاجتماعية المتغيرة • وعلى المستوى الاقتصادى ازداد الاحتكاك التجارى وبدأت الاقليات الدينية تحصل على مزيد من المزايا الاقتصادية التى مكنتها من ممارسة تأثير سياسى بالغ على الامبراطورية • ومن الملاحظات الساخرة أن تكون هذه الأقليات الدينية التى حققت أقصى درجات القوة والثراء هى المبرر الوحيد الذى استخدمته القوى الأوربية للتدخل فى الشئون الداخلية للامبراطورية العثمانية •

ولقد ظلت مدن الشرق الأوسط تتعرض للتدهور المستمر حتى بداية القرن التاسع عشر ، حينما بدأت تدخل مرحلة أخرى بسبب الغزو الأوربى لها وما أدى اليه ذلك من تغيرات اقتصادية وسياسية بعيدة المدى • ففى سنة ١٧٩٨ غزا نابليون بونابرت مصر فاتحا بذلك عهد جديد ارتبطت فيه مصر بالاقتصاد العالمى • بيد أن الجيوش الأوربية لم تدخل معظم دول الشرق الأوسط الا فى فترة متأخرة نسبياً ، أعنى فى أوائل القرن العشرين • ومن الطبيعى أن يؤدى الاحتكاك الاقتصادى بين القوى الاوربية ودول الشرق الأوسط الى تغيرات حضرية هامة لعل أبرزها : نمو التجارة ، وبداية التصنيع ، واستخدام التكنولوجيا الغربية • على أن أهم التغيرات التى حدثت على الاطلاق كانت زيادة نسبة التحضر • فلقد بدأت مدن الشرق الأوسط تشهد فى البداية زيادة تدريجية فى أعداد سكانها ، لكنها ما لبثت بعد الحرب العالمية الثانية أن شهدت نموا سكانيا صاعقا[1] • على

(1) Kingsley Davis and Hilda Hertz Golden; «Urbanization and the Development of Pre-Industrial Areas;» in Paul K. Hatt and Albert J. Reiss; Jr. (eds); Cities and Society; Free Press; New York; 1957; pp. 120-140.

أن هذا النمو الحضرى لم يكن مقصورا على دول الشرق الاوسط ، اذ يكاد يكون أحد الملامح المميزة لدول العالم الثالث • ويمكننا بعد ذلك مناقشة هذه القضايا النظرية وتوضيح أبعادها المختلفة فى ضوء الظروف الخاصة التى مرت بها مدن الشرق الاوسط خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين •

يبدو أن هناك اتفاقا كبيراً بين العلماء الاجتماعيين على أن منطقة الشرق الاوسط قد تحولت خلال القرن التاسع عشر من نمط اقتصاد الاعاشة الموجه الى تحقيق الكفاف ، الى نمط الاقتصاد النقدى الموجه الى التصدير والارتباط بالقوى الاستعمارية[١] • فعشية الحرب العالمية الاولى بدت التنمية الزراعية هى الامل الوحيد لتحقيق التقدم الاقتصادى ، إذ لم يكن النفط قد اكتشف بعد فى منطقة الشرق الاوسط • ونتيجة لذلك أقيمت بعض مشروعات الرى الهامة فى سوريا والعراق ومصر ، كما أدخلت المحاصيل النقدية أو التجارية التى تتلاءم مع احتياجات الاسواق الاوربية• وباستثناء مصر التى شهدت خلال تلك الفترة مشروعات صناعية «قزمية »، كانت دول منطقة الشرق الاوسط موجهة تماما لخدمة الاقتصاد الزراعى الغربى • واذا كانت رؤوس الاموال الاوربية قد حاولت ــ فى نفس الوقت ــ تدعيم الهياكل الاساسية الضرورية للنمو الاقتصادى ، فزودت المدن الكبرى فى الشرق الاوسط بالكهرباء والماء ووسائل الاتصال ، الا أن شئون التجارة والمال قد ظلت حكرا على الاوربيين • والواقع أن التقدم الصناعى الذى حققته المدن الاوربية كان على حساب الطوائف الحرفية التى زخرت بها مدن الشرق الاوسط • ومن هنا تبدو أهمية الفهم البنائى لظاهرتى التخلف والتقدم على المستوى العالمى[٢] • والمحقق أن هذه

---

(١) السيد الحسينى ، « القرية فى الدول النامية ، تحليل نقدى لبعض اتجاهات التغير الاجتماعى » فى : السيد الحسينى وآخرين ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ٣٧٩ .

(٢) أندر جوندر فرانك ، علم اجتماع التنمية ، ترجمة السيد الحسينى ، فى ميادين علم الاجتماع ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

الطوائف الحرفية الحضرية قد كافحت كفاحا مستميتا من أجل البقاء فى مواجهة حركة التصنيع الغربية الهائلة التى عمت الاسواق بسلع جديدة لم تشهدها مدن الشرق الاوسط من قبل[١] • وهكذا بدأ البناء الصناعى لهذه المدن يتعرض لتغيرات عنيفة • ففى مدينة القاهرة بدأ شيوخ الاحياء يفقدون جانبا كبيرا من نفوذهم ، كما اضطرت الحكومة للتدخل فى شئون الطوائف الحرفية ووضعها تحت الرقابة المباشرة • ومن الامور التى يمكن تسجيلها خلال تلك الفترة أن المدن المصرية الكبرى قـد بدأت تشهد طبقة ادارية جديدة أحدثت تأثيرا بالغا على بناءاتها الاجتماعية • ولم تعد الاحيـاء تمثل وحدات اجتماعية مستقلة ، اذ بدأت تشهد خليطا سكانيا يعبر عن مختلف الطبقات والديانات • واذا كان بعض الدارسين يميلون الى تأكيد استمرار التفرد الاقليمى داخل المدن المصرية خلال تلك الفترة ، الا أن ذلك قد يؤدى الى تجاهل التغيرات الهامة التى طرأت عليها • من ذلك ــ مثلا ــ توقف الغارات التى كان يقـوم بها الاشقياء على الاحيـاء المختلفة ، والسيطرة التى بدأت تحققها قوات الامن على الحياة الحضرية ، وسهولة الاقامة أو الانتقال من حى لآخـر ، وتقلص دور رجـال الدين حتى أن تأثيرهم قد أصبح مقصورا على المجالات الاخلاقية[٢] •

ومن خلال التغلغل الاوربى فى منطقة الشرق الاوسط طرأت تغيرات هامة على المناطق البدوية والريفية والحضرية • فالتجار الاوربيون بدأوا يجوبون المناطق الريفية لشراء المحاصيل الزراعية ثم تخزينها وتصديرها من الموانى التى عجلوا باقامتها • ومن الطبيعى أن يؤدى ذلك الى رواج اقتصادى فى بعض المدن الاقليمية ، وبالتالى نمو أحجامها وتنوع وظائفها • ويبـدو أن المدن الكبرى قد تعرضت لبعض الانكماش بسبب انهيـار الصناعات الوطنية والحرفية • وربما كان أكبر تغير حضرى شهدته منطقة

---

(1) C. Issawi; The Economic History of the Middle East; op. cit; p. 112.

(2) G. Baer; Studies in Social History of Modern Egypt; op. cit; pp. 216-220.

الشرق الاوسط خلال القرن التاسع عشر ظهور المدن المصرية الواقعة على قناة السويس (بورسعيد والاسماعلية والسويس) • اذ أن هـذه المدن تدين فى نشأتها ونموها وازدهارها الى حفر هذه القنـاة ونمـو حركـة التجارة عبرها • وبغض النظر عن هـذه الحالة الاستثنائية ، فان آثـار التوسع الاوربى قد انتقلت من المـدن الكبرى الى القـرى الصـغيرة فى منطقـة الشرق الاوسـط[1] • إذ أن ادخـال المحاصـيل النقـدية قـد أدى الى التوسـع فى الملـكية الخاصـة للاراضى الزراعيـة ، ممـا أسـهم فى تعميـق الهـوة بين المـالكين وغـير المـالكين [2] • وهكذا نجد معالم التغير تلوح فى الافق • فالاقتصاديات القومية لـدول الشرق الاوسط بدأت تتجه لخدمة أهداف القوى الاستعمارية ، وأصبحت النقود ـ ولأول مرة ـ هى الوسيلة الاساسية للتبادل ، كما بدأ التجار الاوربيون يحكمون سيطرتهم على الانتاج الزراعى • أما المـدن الاقليمية فقد بدأت تشهد ازدهارا ملحوظا ، لكن الى حين •

ولقد أحدثت هذه التطورات الاقتصادية والسياسية تأثيرا بالغا على مواقع مدن الشرق الاوسط • اذ بدأت المدن الساحلية أو الموانى تحقق أهمية كبيرة نتيجة لضرورات التصـدير وتقدم وسائل الاتصال • وبفضل اكتشاف السفن البخارية ومد السكك الحديدية ، أصبحت مـدن الشرق الاوسط أكثر خضوعا للمدن الغربية التى كانت تحقق فى ذلك الحين نموا اقتصاديا يفوق الخيال • وخلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر ،بدأت موانى البحر المتوسط تشـهد انتعاشا اقتصاديا تدريجيا ، بينمـا أدى افتتاح قناة السويس الى تدعيم المصالح البريطانية وانتشارها ، مما أدى

---

(1) I. H. Harik; «The Impact of the Domestic Market on Rural-Urban Relations in the Middle East»; in R. Antoun and I. Harik; (eds); Rural Politics and Social Change in the Middle East; Bloomington; Ind., 1972; p. 349.

(2) G. Baer; Studies in Social History of Moden Egypt; op. cit; pp. 62-78.

الى نمو بعض المدن البحرية الهامة مثل جـــده وعدن والبحرين وخورم شهر • ويبدو أن النمو السكانى الذى شهدته هذه المدن البحرية قد تحقق من خلال هجرة آلاف الهنود والاندونيسيين والصوماليين اليها • فلقد أشار شارل عيسوى الى أن أكثر من ربع سكان مدينتى الاسكندرية وبورسعيد فى سنة ١٩٠٧ كانوا من الاجانب[1] • ومهما يكن من أمر ، فان النمو الحضرى الذى شهدته هذه المدن كان بطيئا للغاية خلال النصف الثانى من القـــرن التاسع عشر • اذ أن النمو السكانى الذى شهدته المـــدن البحرية كان على حســـاب المـــدن الداخلية ، إن لم نقـــل على أنقاض الصناعات الحرفية المنهارة • ففى مصر بلغ عدد سكان الحضر فى سنة ١٨٢١ حوالى ٤٠٠ر٠٠٠ نسمة ، ثم ارتفع هذا الرقم فى سنة ١٩٠٧ الى ٠٠٠ر٥٩٦ر١٠ وعلى الرغم من هذه الزيادة الملحوظة فى عدد سكان الحضر ، الا أن نسبتهم فى ضـــوء العدد الكلى لسكان مصر قد ارتفعت فقط من ٥ر٩٪ الى ٣ر١٤٪ • وينطبق ذلك أيضا على سوريا التى كانت دولة حضرية قبل القرن التاســـع عشر ، كما ينطبق على العراق التى لم تشهد نموا حضريا ملحوظا فيما بين سنتى ١٨٦٧ و ١٩٣٢ • وهناك بعض التغيرات الحضرية الهامـــة التى يمكن أن نسجلها خلال تلك الحقبة • ففى أواخر القرن التاســـع عشر بدأت بعض مدن الشرق الاوسط تعرف الضواحى الحضرية الصغـــيرة المنفصلة التى تقع خارج الاسوار التى أقيمت فى فترة مبكرة • وفى معظم الاحيان كانت هذه الضواحى تتخذ نمطا حضريا غربيا • ومن هنا يمكن القول إن ظهور نمط الضواحى فى مدن الشرق الاوسط كان بتأثير عوامل خارجية وليس بفعل ضروريات داخلية • ويبدو أن المدن الساحلية كانت أكثر عرضة للتغير والنمو من المدن الداخلية بسبب تعرضها للغزو المباشر من الخارج وضرورة تكيفها مع متطلبات التجارة العالمية النامية •

---

(1) C. Isawi; The Economic History of the Middle East; op. cit; pp. 108-109.

وعشية الحرب العالمية الاولى تفككت أوصال الامبراطورية العثمانية، وبدأ الشرق الاوسط يشهد أوضاعا سياسية واقتصادية تختلف عن تلك التى ظل يشهدها لقرون عديدة • ولولا الاصلاحات الداخلية الهامة التى قام بها كمال أتاتورك ، ورفض تركيا لفكرة تقسيم الشرق الاوسط الى دول قومية مستقلة ، لتغيرت معالم الخريطة السياسية لهذه المنطقه فى وقت مبكر • وفى ضوء هذه النظرة العامة يمكننا تحليل عوامل النمو الحضرى فى دول الشرق الاوسط فى الفترة اللاحقة على الحرب العالمية الاولى • إذ أن هذه الدول قد شهدت خلال العقود الخمسة الاخيرة زيادة ملحوظة فى نسب سكانها الحضريين • ويمكننا تفسير ذلك فى ضوء أربعة عوامل أساسية هى : المركزية السياسية ، والاضطرابات السياسية الداخلية ، وتغير طابع التجارة الخارجية والعلاقات الخارجية عموما ، وأخيرا اكتشاف النفط واستغلاله فى صناعات مختلفة • فاذا ما تناولنا العامل الاول (المركزية السياسية) ، لاحظنا أن النمط الادارى الاوربى (وعلى الاخص الفرنسى والالمانى) قد تغلغل فى مناطق الامبراطورية العثمانية فى وقت مبكر نسبيا ، قد يعود الى بداية القرن التاسع عشر[1]• ويقوم هذا النمط الادارى على تركيز الوظائف الادارية • وقد يفسر لنا ذلك أسباب نشأة بعض المدن فى الشرق الاوسط • اذ ان هذه المدن لم تنشأ نتيجة لضرورات اقتصادية بقدر ما نشأت لخدمة أغراض ادارية • ولنا أن نستنتج من ذلك عدم وجود علاقة قوية بين مؤشرات النمو الاقتصادى من ناحية ودلائل النمو الحضرى من ناحية أخرى[2] • ففى العراق وسوريا ولبنان ارتبط الاستقلال السياسى بتركيز الوظائف الادارية والسياسية فى مدنها الرئيسية أو إن شئنا الدقة فى عواصمها السياسية • ولاشك أن نمو سكان المدن قد مارس بعض الضغوط الاقتصادية والسياسية على الحكومات ،

---

(1) Kenneth Little; Urbanization as a Social Procoss; London; 1974;

(2) See S. E. Ibrahim; «Urbanization in the Arab World»; Population Bulletin of the United Nations Economic Commission for Western Asia 7 (1974); 74-124.

خاصة وأن مشروعات التنمية الصناعية قد ارتبط باهمال المناطق الريفية • وفيما بين الحربين العالميتين شهدت دول الشرق الاوسط تقدما ملحوظا فى فى وسائل الاتصال ، مما ساعد على تدعيم الامن فى كل من المناطق الريفية والحضرية • بيد أن التوسع فى مشروعات الرى ، واستبدال الحيوانات بالآلات الميكانيكية قد حدا من حركة القبائل البدوية فى كثير من المناطق الصحراوية[1] • وليس من الصدفة أن يكون نمو الوعى السياسى فى مدن الشرق الاوسط قد ارتبط بزيادة معدلات الهجرة الريفية ـ الحضرية وضعف النمو الصناعى الذى ارتبط ببطالة حضرية واسعة النطاق •

كذلك فلقد أدت الاضطرابات السياسية التى شهدتها منطقة الشرق الاوسط بعد الحرب العالمية الاولى الى نمو حضرى سريع المدى • ففى سنة ١٩١٤ هاجر ٥٠٫٠٠٠ أرمنى هربا من المذابح التى أقامها لهم الاكراد • كما أن إنشاء دولة اسرائيل قد أدى الى هجرة ٩٠٠٫٠٠٠ فلسطينى الى مناطق أخرى لعل أهمها عمان وبيروت والرياض ودول الخليج العربى • وفضلا عن ذلك أدت بعض الاضطرابات الداخلية فى بعض الدول الى إرتفاع معدلات الهجرة الريفية ـ الحضرية ، خاصة اذا ما كان الامر متصلا بالانقلابات العسكرية[2] • واذا ما انتقلنا الى تأثير تغير نمط التجارة على النمو الحضرى ، لاحظنا ان قناة السويس قد أعادت تحديد موقع دول الشرق الاوسط • لقد أعادت القناة توجيه العلاقات المكانية ، بل أكاد أقول خلقت عالما جديدا • فبواسطة القناة نمت حركة التجارة العالمية ، وازدادت السياحة ، وأصبح الحج الى المدن الاسلامية فى متناول اليد • ولا نستطيع أن نغفل فى هذا المجال تأثير « الخروج الابيض » على النمو الحضرى فى دول الشرق الاوسط • فمن الحقائق التاريخية المألوفة ان الاوربيين فى مصر وتركيا والشام كانوا يتولون خلال القرن التاسع

(1) Z; Y; Herschlag; Introduction to the Modern Economic History of the Middle East; Leiden; 1964; p. 112.

(2) G. E. Ffrench and A. G. Hill; Kuwait : Urban and Medical Ecology; Heidelberg; 1971; p. 13.

عشر ، وظائف الطبقة الوسطى المتصلة بالادارة والتجارة • وبانتهاء الحرب العالمية الثانية ، بدأت هذه الدول تستبدل الاوربيين بالوطنيين ، مما كان له أكبر الاثر فى نمو سكان المدن وتغير أنماطها الايكولوجية •

وأخيرا فلقد كان لظهـور البترول تأثيرا بالغا على النمط الحضرى فى منطقة الشرق الاوسط • فلقد شهدت السـعودية والكـويت وقطـر والامارات العربية نموا سكانيا حضريا بمعـدل الصاعقة • اذ تضاعفت نسبة سكان الحضر أربع مرات خلال ربع قرن (من ١٩٥٠ حتى ١٩٧٤) • ففى الكويت ارتفعت النسبة من ٥١٪ عام ١٩٥٠ الى ٩٠٪ عام ١٩٧٤ ، وفى قطـر من ٥٠٪ الى ٧٦ر٥٪ ، وفى الامارات العربية من ٢٥٪ الى ٦٤ر١٪[١] • ومثل هذا يمكن أن ينطبق ـ الى حـد ما ـ على ليبيـا والجزائر وعمان والعراق • ففى هذه الدول ظهرت مدن البترول بين يوم وليلة ، فتدافع اليها المغامرون والمضاربون حتى وصلوا الى أقصى وأقسى البيئات • وتظهر هذه المدن فى بداية الامر كمجموعة خيام ، فاذا ما نجح البئر انفجرت المدينة فى نوبة رخـاء محمومة فتنمو نموا مذهلا فى معدله وسرعته[٢] • والملاحظ أن معظم مدن استخراج البترول فى هـذه الدول هى من المدن الصغيرة الحجم ، اذ أن حياتها مرتبطة بسرعـة الاستخراج مما يهدد عمرها المنتظر • وهكذا فبقدر ما تكون النشأة فجائية سريعة ، بقدر ما تكون النهاية القريبة قدرا محتما • وما تلبث أن تتحول هذه المدن الشيطانية الى « مدن أشباح » ، أو كما يقال « جبانات حضرية » • واذا كانت هذه المدن واقعة فى مناطق زراعية فانها عند نشأتها تأخـذ الارض من الزراعة والفلاحين ، ولكن عند انقراضها لا تعود الزراعة ولا الفلاحون بعد أن حولها التعدين الى جيوب مهجورة وتربة فاسـدة • وعندما اكتشف

---

(١) هيفاء الشنوانى ، « ظاهرة النمو الحضرى » ، المؤتمر الرابع عشر للشئون الاجتماعية ، جامعة الدول العربية ، ١٩٧١ ، ص ص ٢ ـ ٣ •

(٢) جمال حمدان ، جغرافية المدن ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ١٢٨ •

البترول فى منطقة الشرق الاوسط كان التكرير يتم داخلها • بيد أن زيادة الطلب على البترول ، ونمو أحجام الناقلات البحرية ، ومراعاة الاعتبارات الاستراتيجية والسياسية ، قد أدت جميعها الى نقل معامل التكرير الى الدول الصناعية الغربية ، وان كنا نلحظ فى السنوات الاخيرة اتجاها عكسيا • والواقع أن ظهور البترول لم يؤثر فقط على الدول المنتجة له (كالسعودية وايران والامارات العربية والكويت وقطر والعراق وليبيا) ، بل انه قد أحدث تأثيرا غير مباشر على دول أخرى كمصر (من خلال قناة السويس) ولبنان (من خلال مصارفها وذلك قبل نشوب الحرب الاهلية فى سنة ١٩٧٥) •

واذا ما تناولنا أنماط النمو الحضرى فى دول الشرق الاوسط ، لاحظنا وجوه اختلافات واضحة بينها برغم الاستمرار المضطرد فى زيادة نسبة سكان المدن[1] • وقد يدفعنا ذلك الى القول بأن دول الشرق الاوسط تشهد « عموميات » حضرية بقدر ما تشهد « خصوصيات » سكانية • ففى تركيا ارتفعت نسبة سكان الحضر فيما بين سنتى ١٩٣٥ و ١٩٥٠ من ٦ر٧٪ الى ٧ر١٨٪ ، لكن هذه النسبة ما لبثت أن ارتفعت فيما بين سنتى ١٩٥٠ و ١٩٦٥ الى ١٣٨٪ • ولقد كانت الهجرة الريفية ــ الحضرية السبب المباشر فى ارتفاع معدل النمو الحضرى فى تركيا[2] • وفى مصر لم تكن نسبة سكان الحضر فى سنة ١٨٩٩ تزيد عن ٥ر١٤٪ من مجموع السكان ، بينما وصلت فى سنة ١٩٦٦ الى ٤١٪ • أما البيانات الاحصائية الحديثة فتشير الى أن هذه النسبة قد وصلت فى سنة ١٩٧٤ الى ٣ر٤٤٪[3] • وفى ايران ارتفعت نسبة سكان الحضر من ٢١٪ خلال عقد الاربعينيات الى ٣١٪

---

(1) J. D. Clarke; «Introduction»; in Population of the Middle East and North Africa; ed. by I. Clarke and W. B. Fisher; London; 1972.

(2) J. Dewdney; «Turkey : Recent Population Trends»; in Ibid; p. 113.

(٣) انظر البيانات السكانية المتعلقة بمصر فى :
United Nations Year Book; 1974.

فى سنة ١٩٥٦ و ٣٩٪ فى سنة ١٩٦٦[١] . أمـا العراق فقد ظلت نسبة سكان الحضر فيها ثابته نسبيا (٢٥٪) فيما بين سنتى ١٨٦٧ و ١٩٣٠ . ولقد وصل معدل النمو السنوى للمـدن العراقية فيما بين سنتى ١٩٥٧ و ١٩٦٥ الى ٥ر٧٪ ، بينما كان معدل النمو السكانى فى العراق ككل ٥ر٣٪ ويفسر بعض الدارسين ذلك فى ضوء ارتفاع معدلات الخصوبة فى المـدن العراقية بوجه عام ، فضـلا عن تأثير الهجرة الريفية الحضرية[٢] . وفى سوريا ارتفعت نسبة سكان الحضر من ٣٧٪ فى سنة ١٩٦٠ الى ٤٠٪ فى سنة ١٩٧٠ . وربما كانت دمشق هى أكبر المدن السورية التى شهدت نموا سكانيا . أما بالنسبة للمملكة العربية السـعودية فان التقديرات تشـير الى أن نسبة سكان الحضر قد ارتفعت فيها من ٢٤٪ الى ٣٣٪ فيمـا بين سنتى ١٩٦٢ و ١٩٧٠ ، وأن هـذا الارتفاع يعود الى اتسـاع نطاق عملية توطين البـدو[٣] . وعلى الرغم من أننا لا نملك بيانات احصائية أحدث عن السعودية ، الا أننا نتوقع ارتفاعا ملحوظا فى نسبة سكان الحضر بسبب اتساع نطاق العمالة الوافدة الضرورية لانجاز مشروعات التنميـة الاقتصادية والاجتماعية . ومثل هذا يمكن أن ينطبق — بدرجات مختلفة — على دول الخليج العربية التى أشرنا الى طابع النمو الحضرى فيها قبـل قليل . أما فى ليبيا فقد ظلت نسبة سكان الحضر فيهـا منخفضة الى حد كبير حتى بداية ستينات القرن العشرين ، حينما بدأ اكتشاف البترول على نحو تجارى . ويذهب هارتلى Hartley الى أن نسـبة سكان الحضر فى ليبيا قد ارتفعت من ١٨٪ الى ٢٥٪ فيما بين سنتى ١٩٥٤ و ١٩٦٦[٤] .

---

(1) J; Bharier; «A Note on the Population of Iran; 1900-1966»; Population Studies; 22 (1968); pp. 273-279.

(2) R. I. Lowless; «Iraq : Changing Population Patterns»; in J; I; Clarke and W. B. Fisher; op. cit; p. 66.

(3) R. Mc Gregor; «Saudi Arabia : Population and Making of a Moderate State»; in Ibid; p. 172.

(4) R. G. Hartley; «Libya : Economic Developoment and Demographic Responses»; in Ibid; pp. 242-273.

وعلى الرغم من أن كل الشواهد الاحصائية المتاحة تؤكد حدوث نمو حضرى واسع النطاق فى دول الشرق الاوسط ، الا أن تفسيرات ذلك مانزال موضع نقاش وجدل • فالبعض يؤكد أن الهجرة الريفية ــ الحضرية هى السبب الاساسى المباشر لنمو سكان مدن الشرق الاوسط ، بينما نجد البعض الآخر يفسر ذلك فى ضوء تفاوت معدلات الخصوبة فى كل من المناطق الريفية والحضرية • فلقد أوضحت جانيت أبو لغد فى دراسة هامة أن معدلات الخصوبة لا تختلف فى ريف مصر عن معدلات حضرها ، بينما تقل معدلات الوفيات فى الحضر عنها فى الريف • ومعنى ذلك أن فرص زيادة سكان المدن المصرية (نتيجة للزيادة الطبيعية) أعلى من فرص زيادة سكان القرى المصرية[1] • وفى دول أخرى لوحظ أن التفاوت فى معدلات الخصوبة والوفاة يؤدى الى تركز سكانى واضح بالنسبة للجماعات العمرية الشابة ، بينما ترتفع نسبة الجماعات العمرية المعمرة فى المناطق الريفية • والواقع أننا لا نقصد بذلك الفصل بين تأثير كل من الهجرة الريفية ــ الحضرية والزيادة الطبيعية على النمو الحضرى فى مدن الشرق الاوسط • ان عكس ذلك هو الصحيح تماما • ففى كثير من المدن تبدأ الهجرة الريفية ــ الحضرية باحداث نمو حضرى ، ثم ما تلبث الزيادة الطبيعية أن تعجل من هذا النمو الحضرى • أما سبب هذا التعجيل فيعود الى أن معظم المهاجرين الى المدن ينتمون الى الفئة العمرية الشابة التى ترتفع معدلات خصوبتها وتقل معدلات وفياتها •

ويمكننا الاستشهاد على ذلك بمدينتى الكويت والقاهرة • فلقد ظلت الكويت لفترة طويلة تعتمد فى اقتصادها على صيد الاسماك والغوص على اللؤلؤ وصناعة السفن والحرف اليدوية[2] • وفى نهاية القرن التاسع

---

(1) J. Abu-Lughod; «Urban-Rural Differences as a Function of the Demographic Transition : Egyptian Data and an Analytical Model»; American Journal of Sociology; 69 (1963); pp. 476-490.

(٢) يجدر الاشارة الى أننا نتناول مدينة الكويت كمثال يوضح لنا طابع مدن الخليج العربى مثل الدوحة وأبو ظبى ودبى والى حد ما البحرين . ويمكننا

عشر ، أصبحت الكويت تحت الحماية البريطانية • أما عدد سكانها فلم يزد فى سنة ١٩٠٧ عن ٣٥٫٠٠٠ نسمة • وحتى سنة ١٩٥٠ لم تطرأ زيادة ملحوظة على عدد سكان مدينة الكويت • على أن « مصباح علاء الدين » قد منح الكويت ابتداء من ذلك التاريخ ما لم يكن يخطر على بال بشر • إذ ما لبث النفط أن تدفق فتحولت مدينة الكويت خلال سنوات قليلة الى قبلة الباحثين عن الثروة والرخاء والأمان • لقد كان معظم المهاجرين الى الكويت من دول أخرى • ومن نتائج ذلك أن ارتفع عدد سكان الكويت من ٦٠٫٠٠٠ نسمة خلال الثلاثينيات الى ١٠٠٫٠٠٠ نسمة فى منتصف الاربعينيات • وفى سنة ١٩٥٢ بلغ عدد سكان الكويت ١٦٠٫٠٠٠ نسمة ، لكنه ما لبث أن حقق قفزة ضخمة ليصل الى ٤٦٧٫٣٣٩ نسمة فى سنة ١٩٦٥ ، ثم يصل الى مليون تقريبا فى سنة ١٩٧٥ • وقبل اكتشاف النفط كان سكان مدينة الكويت خليط من الكويتيين والعبيد الذين أتوا فى فترة سابقة من شرق أفريقيا ، كما أن التفرقة بين الكويتيين وغير الكويتيين لم تكن قد ظهرت الا بصدور قانون الجنسية فى سنة ١٩٤٨ • وليس من الصدفة أن يكون صدور هذا القانون مصاحبا لظهور النفط بكميات وفيرة • وبحلول الخمسينيات شهدت مدينة الكويت بداية الرخاء واتساع نطاق الهجرة اليها • ففى سنة ١٩٥٧ كانت نسبة غير الكويتيين (المهاجرين) تشكل ٤٥٪ من المجموع الكلى للسكان ، ثم ارتفعت فى سنة ١٩٦٥ الى ٥٣٪ • وقبل ظهور النفط كان معظم المهاجرين الى الكويت من امارات الخليج العربى وايران وعمان • بيد أن مصادر الهجرة ما لبثت أن تغيرت بعد ظهور الثروة النفطية • وبدون الدخول فى تفاصيل دقيقة ، فان معظم المهاجرين الجدد الى مدينة الكويت كانوا من الفلسطينيين والاردنيين والمصريين والسوريين واللبنانيين • ولقد أوضحت بعض التحليلات الحديثة أن

= أن نجد تحليلا عاما لبعض القضايا العامة التى نشير اليها هنا فى محمد الرميحى ، البترول والتغير الاجتماعى ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٥ ، وكذلك معوقات التنمية الاجتماعية والاقتصادية فى مجتمعات الخليج العربى المعاصرة ، شركة كاظمة ، الكويت ١٩٧٧ .

الهجرة الخارجية الى مدينة الكويت قد أحدثت نتائج بالغة الاهمية فيما يتعلق بالبناء السكانى • فلقد ارتفعت نسبة الذكور العاملين ارتفاعا ملحوظا كما ارتفعت نسبة الفئة العمرية الشابة (١٥ ــ ٤٥) • ومثل هذا يقال عن نسبة الذين يقرأون ويكتبون بسبب الطابع الانتخابى الــذى يحكم هذا النمط من الهجرة • وعلى الرغم من الــدور الحاسم الذى تلعبه الهجرة فى النمو الحضرى لمدينة الكويت ، الا أننا لا نستطيع تجاهل تاثير الزيادة الطبيعية • فخلال السنوات الاخيرة تطورت الخدمات الصحية فى مدينــة الكويت حتى كادت تفــوق نظيراتها فى الــدول الاوربية • ومن الطبيعى أن يــؤثر ذلك على معــدلات الوفيات التى ما لبثت أن انخفضت انخفاضا سريعا • واذا ما أخــذنا فى الاعتبار استمرار ارتفاع معدلات المواليد ، استطعنا أن ندرك الــدور الذى تلعبه الزيادة الطبيعية فى النمــو السكانى لمدينــة الكويت • ولعل هذه الشواهد توضح لنا أنه برغم الصلة الوثيقة بين الهجرة والزيادة الطبيعية ، الا أن تحديد التأثير النسبى لكل منهما قد يكون عسيرا فى بعض الاحيان[١] • أما علاقة النمــو الحضرى بالتنميــة الاقتصادية فى مدينة الكويت فما تزال بحاجة الى مزيد من التحليل والتأمل ، على الرغم من الدراسات الحديثة القليلة التى بدأت تعنى بالتصنيع والتحضر فى الدول الخليجية العربية[٢] •

واذا ما استخدمنا مصطلحات والت روستو Rostow أمكننا القول ان التحضر فى الكويت قد مر بمرحلة تقليدية بدأت من بداية العصــور الوسطى الاسلامية حتى اكتشاف النفط خلال ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين • فلقد كانت مدينة الكويت ــ شأنها فى ذلك شأن معظم المــدن

---

(1) A. G. Hill; «The Gulf States : Petroleum and Population Growth»; in J. I. Clarke & W. Fisher; (eds.) Population of the Middle East and North Africa; op. cit; pp. 244-255.

(٢) يمكننا الاشارة الى بعض الدراسات الحديثة الجيدة التى تناولت التحديث والتصنيع والتحضر فى بعض دول الخليج العربى . انظر على سبيل المثال : جهينه العيسى ، التحديث فى المجتمع القطرى ، دار كاظمــة للنشر ، الكويت ، ١٩٧٩ ، أمل الصباح ، الهجرة الى الكويت ، جامعــة الكويت ، ١٩٧٨ . كذلك يمكننا الاشارة الى الدراسات العديدة التى تضمنتها مجلــة دراسات الخليج وشبه الجزيرة العربية الصادرة عن جامعة الكويت .

العربية المطلة على الخليج العربى ــ صغيرة الحجم ، محاطة بأسوار وقلاع دفاعية • ويبدو أن مساكن وشوارع ومرافق هذه المدن كانت تعكس بوضوح طابع العلاقات القبلية والالتفاف حول الاسرة • ولقد سيطرت على هذه المدن كل الخصائص التقليدية التى ألفنا قراءتها فى مؤلفات علم الاجتماع الحديث • بيد أن مدينة الكويت قد مرت بعد ذلك بمرحلة نشأة وتكوين بفضل اكتشاف النفط وما ترتب على ذلك من هجرة واسعة النطاق اتخذت اتجاهين : الأول داخلى تمثل فى استيطان البدو وانتقالهم الى المدينة ، والثانى خارجى تمثل فى استقبال مهاجرى الدول الاخرى للعمل فى المشروعات المختلفة • وفى هذه المرحلة كان معظم هؤلاء المهاجرين من الهند وباكستان وايران[1] •وبسبب عدم قدرة الهياكل الاساسية لمدينه الكويت عن استيعاب المهاجرين ظهرت فى البداية مدن « الصفيح » و « الاكواخ » • وفى تلك المرحلة لم تكن التكنولوجيا قد تمكنت من قهر الجغرافيا • اذ كان على هؤلاء المهاجرين أن يعملوا فى أقسى الظروف المناخية والطبيعية ، أعنى فى غياب مكيفات الهواء ومبردات الماء • ولم تخل هذه المرحلة من تغيرات هامة •فلقد بدأت مدينة الكويت تشهد نموا عمرانيا ملحوظا تمثل فى بداية الامر فى انشاء الهياكل الاساسية (الفيزيقية والاجتماعية) ، فأقيمت المرافق العامة وأنشأت الاجهزة الادارية والقضائية والسياسية • أما أكثر التغيرات الايكولوجية أهمية فى تلك المرحلة فهى تخطى أسوار القلاع واستمرار الزحف عبر الصحراء وفى مختلف الاتجاهات المحاذية لشاطىء الخليج ، حتى بدت المدينة وكأنها تتخذ شكل حلقات دائرية • أما المرحلة الثالثة التى مرت بها مدينة الكويت فكانت مرحلة التحضر السريع • فيها تحقق الرخاء الاقتصادى دفعة واحدة ، واستمر النمو الحضرى بمعدل لم يسبق له مثيل ، وتشكلت الجماعات الطبقية الحضرية الاساسية ، وبدأت الروابط القبلية فى التحلل لتحل محلها روابط طبقية مانزال فى طور التكوين •

---

(١) عبد الله ابو عياش واسحق القطب ، النمو والتخطيط الحضرى فى دول الخليج العربى ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ١٩٨٠ ، ص ٨٣ وما بعدها .

أما مدينة القاهرة فانها تعبر عن واقع تاريخى حضرى مختلف تماما عن ذلك الذى ألفناه فى مدينه الكويت • فالقاهرة هى ألف عـام من عمر الزمان • هى المدينة الاولى فى قطاع هائل متصل من العالم القديم • تحتل موقعا فريدا هـو خاصرة مصر • هى مجمـع الوادى والفرعين وملتقى الصحراويين وأكبر واحة فى العالم فى أكبر صحراء فى الدنيا • ان شئنا الدقة قلنا انها أكبر مدينة صحراوية فى العالم على أكبر نهـر فى الدنيـا تقريبا[1] • تبدو القاهرة بالنسبة لمصر وكأنما القطر على موعـد فيـها • والواقع أن كل عواصم مصر تقريبا كانت تدور فى فلك القـاهرة الان • فمنف هى البدرشين ، وهيليوبولس هى عين شمس ومصر الجـديدة ، وبابليون هى مصر القديمة ، والفسطاط هى القاهرة الفاطمية • لقد قيل بحق ان موقع القاهرة هو من اختيار « الآلهة » • والواقع أن مصر تعد من أوائل دول العالم التى حققت فيها القرية فائضا اقتصاديا • وهذا يعنى أنها قد شهدت فى فترة مبكرة « ثورة حضرية » • ان المدينة فى مصر قديمة قدم الكتابة الهيروغليفية على الاقل • ولقد ظلت مدينة القاهرة حتى بداية القرن التاسع عشر تعبر عن ملامح العصور الوسطى ، الى أن جـاء محمد على الذى أبدى اهتماما كبيرا بتطوير المدينة وتوسيع نطاقها • على أن النمو الحقيقى الذى حققته القاهرة قد تم على يـد حفيده الخـديوى اسماعيل الذى أفاد كثيرا من الحرب الاهلية الامريكية نتيجة لانخفاض انتاج القطن الامريكى ، مما كان له أكبر الاثر على ارتفاع أسـعار القطن المصرى • ولقد أنفق اسماعيل بسخاء على تطوير مدينة القاهرة فأنشأ حى الاسماعيلية ليكون منطقة سكنية للطبقة العليا ، كما زود بعض أحيـاء المدينة بالكهرباء والمياه النقية • بل إن اقامة الاوبرا فى عهد اسماعيل لم يكن يخلو من دلالة حضرية هامة • وفى سنة ١٩١٧ لم تكن نسبة الاجانب

---

(١) جمال حمدان ، مقدمة الترجمة العربية لكتاب « القـاهرة » تأليف ديزموند ستيوارت ، ترجمة يحيى حقى • دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

فى مدينة القاهرة تزيد عن ١٠٪ من مجمـوع سكانها البالغ ٨٠٠ر٠٠٠ نسمه[١] • بيد أن هذه النسبة قد بدأت فى الانخفاض بعـد ذلك بسبب ظهور جماعات مهنية مصرية قادرة على قيادة كثير من المهام الادارية والفنية. ولقد بدأت الصـفوة المهنية المصرية الجديدة فى الانتقال من قلب مدينة القاهرة الى ضواحيهـا ، ثم ما لبثت جماعات المهاجرين من الريف الى المدينة أن احتلت المساكن القديمـة التى تركتها هذه الصفوة المهنية • والملاحظ أن هذا النمط الايكولوجى التتابعى يكاد يكـون شائعا فى معظم مدن الشرق الاوسط • وبحدوث « الخروج الابيض » من القاهرة بقيام ثورة ١٩٥٢ تغيرت معالم الازدواجية الحضرية (الثقافية والطبقية) التى ظلت تشهدها هذه المدينة لفترة طويلة[٢] •

وتشير النظرة العابرة الى المدن الاقليمية المصرية بعامـة ومدينة القاهرة بخاصة الى وجود قدر ملحوظ من الازدواجية[٣] • اذ نجد قطاعين أساسيين : الأول قديم يقع عادة فى جنوب المدينة ، ويمتاز بقلب تجـارى ذو طابع وطنى ، ويقوم عادة فى ظل جامع كبير تنتشر حولة غابة من المساجد الصغيرة • وفى كل الاحوال فان هذا القطاع يحاول مقاومـة الانقراض الحتمى • أما القطاع الحديث فهو ابن القرن الماضى وأقرب الى الطابع الاوربى : فهو مقر الجاليات الاجنبية ، وموطن الطبقات الغنية ، كما أن شوارعه مستقيمة وتتخذ شكلا هندسيا معينا • ويقع هذا القطاع الحديث عادة فى الشمال حتى يستأثر بالرياح الشمالية الطازجة النقية ، كما أنه ينجذب دائما الى شاطىء النيل • واذا ما حاولنا تحديد النمط الحضرى

---

(1) G. Baer; Studies in Social History of Modern Egypt; op. cit; p. 144.

(2) G. Abu-Lughod; «Varieties of Urban Experience : Contrast; Coexistence and Coalescence in Cairo»; in I. Lapidus; Middle Eastern Cities; op. cit; p. 105.

(3) G. Hamdan; Studies in Egyptian Urbanism; Cairo; 1959.

للمدن المصرية ، لاحظنا أن النيل قد لعب دورا حاسما فى هذا المجال [١] • فكل مدن الصعيد تقع على النيل حتى أصبح شارعها • بيد أن قبضة النيل تخف فى الدلتا • اذ نجد الموانى الكبرى على الساحل والقناة مرتبطة بالبحر أكثر من النيل ، وان كانت تستمد مقومات حياتها من مياه النيل ومحاصيل تربته • لذلك نستطيع القول ان مدن القناة هى نتاج المياه العذبة بقدر ما هى نتاج المياه الملحة • وفى داخل الدلتا تكاد تقع المدن الكبرى اما على فرعى النيل أو على ترعه المختلفة دون استثناء • كذلك فاننا نلحظ أن أكبر المدن المصرية حجما تقع على أهم المجارى النهرية ، وأصغرها حجما تقع فى أطراف الدلتا (طنطا والمنصورة فى مقابل الزقازيق ودمنهور) • ويبدو تأثير النيل طاغيا على مستوى البناء الايكولوجى الداخلى للمدن المصرية • فأغلب المساكن والمبانى الممتازة والخدمات الراقية توجد على شاطىء النيل • ومعنى ذلك أن النهر يجذب اليه الطبقات الاجتماعية العليا والنشاطات الحساسة • وربما لهذا السبب اتخذت معظم المدن المصرية شكلا مستطيلا على طول النيل • واذا كانت مدن الدلتا تحاول الحصول على أكبر مساحة واقعة على النيل ، فان كل مدن الصعيد مستطيلة على النيل نصا • وهذا يعنى ــ ببساطة ــ أن النمط الحضرى للمدينة المصرية يتبع النيل بأمانة •

ومن الطبيعى أن يكون النمط الايكولوجى المعاصر لمدينة القاهرة قد تطور من خلال عمليات تاريخية مستمرة استمرت لاكثر من ألف عام • فخلال العصر العربى كانت الفسطاط (القاهرة) تقع فى الجنوب • كانت مدينة حربية معلقة على التل ومحصنة بالطبيعة • والمحقق تاريخيا أن القاهرة المعزية قد ظلت تحافظ على طابعها الحربى لفترة طويلة • وآية ذلك استمرار وجود الاسوار التى كانت أفضل وسيلة للحماية الخارجية • على أن نمو المدينة قد بدأ فى وقت لاحق يتحرر من جبل المقطم والاسوار •

---

(١) جمال حمدان ، شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان ، القاهرة ، كتاب الهلال ، ١٩٦٧ .

ولقد كان محمد على هو أول من اخترق الحدود التى كانت مفروضة على القاهرة متجها الى شبرا أولا ، ثم جاردن سيتى التى أصبحت سكنا لعائلته • واذا كان اسماعيل هو منشىء الاسماعيلية ، فان توفيق هو منشىء التوفيقية • أما مدينة الجيزة فقد ظلت حتى بداية القرن الحالى مدينة متواضعة ، لكنها ما لبثت أن بدأت تتسع شمالا كشريط يزداد سمكا وعمقا • وبنهاية الحرب العالمية الثانية نمت أحياء كثيرة فى الجيزة ، مما يعنى أن النمو العمرانى لمدينة القاهرة قد بدأ يتخذ اتجاه الغرب • والملاحظ أن نمو مدينة القاهرة قد ظل يتجه الى الشمال والشمال الشرقى باستثناء قفزتين حضريتين : الاولى هى حلوان التى أنشأها اسماعيل كمدينة استشفاء ، والثانية هى المعادى التى أنشأها الاستعمار كمقر لجاليته • وفى اتجاه الغرب استعمرت القاهرة نهر النيل ذاته (أعنى جزيرتى الجزيرة والروضة) ، ثم امتدت لتربط شرقها بغربها • ومعنى ذلك أن تاريخ القاهرة هو امتداد الاطراف بقدر ما هو تكثيف فى الداخل • وأحد نتائج ذلك أن بدأ جسم المدينة يمتلىء حتى الاختناق ، بحيث لا نجد رئة خضراء أو مساحة مكشوفة • ان جبل المقطم الذى كان ينظر اليه بهيبة كبيرة خلال القرن الماضى لم يعد هو المتحكم فى ايكولوجية مدينة القاهرة • لقد اتسعت المدينة من المقطم الى الهرم ، ومن حلوان الى شبرا • ولقد كان هذا الاتساع على حساب الاراضى الزراعية وعلى الاخص فى المناطق الغربية من المدينة • لذلك فان شعار الرمل للعمران والطين للزراعة لايخلو من دلالات اقتصادية وحضرية بالغة •

واذا ما أردنا قدرا من التخصيص ، قلنا ان الازدواجية الحضرية فى مدينة القاهرة تبدو أوضح ما تكون فى اعتماد بعض أحيائها على خطة حضرية ، بينما تنمو الاحياء الاخرى بطريقة عشوائية ، أو ان شئنا الدقة بدون خطة • وتتضح العشوائية فى القطاع الشرقى والجنوبى من القاهرة شرق النيل • ففى هذا القطاع القديم نجد الازقة الضيقة والحوارى المسدودة والملتوية والمتعرجة ، فضلا عن ارتفاع الازقة وانخفاضها بسبب الموقع التلى • وفى القطاع الحديث نجد تخطيطا هندسيا واضحا فيما عدا

بعض الجيوب العشوائية • والطريف هنا أن الشوارع الرئيسية تتجه مع النيل وتتخذ انحناءاته وتعرجاته بأمانة ، حتى أن الشوارع العرضية نجدها عمودية على الطولية • ومع ذلك فان الاحياء الراقية فى مدينة القاهرة لا تتبع خطة ايكولوجية واحدة • فالشوارع فى الزمالك تتخذ شكل المعين ، بينما تتخذ فى جاردن سيتى شكل الدائرة • وفى مدينة القاهرة نجد مجموعة من البؤر المشعة التى تشكل مركزا لخطوط المواصلات • من ذلك محطة مصر ، والعتبة ، وباب اللوق ، والسيدة زينب[1] • والواقع أن النمو السكانى لمدينة القاهرة — فضلا عن انشطارها الى قسمين بسبب تأثير النيل — قد أسهم فى تعقيد مشكلة المواصلات الارضية • اذ لاتزال معظم شوارع المدينة لا تتجاوز اتساع شوارع مدن العصور الوسطى [2] •

وتؤدى مدينة القاهرة عددا كبيرا من الوظائف بعضها يتصل بالعمل والانتاج والبعض الآخر يتصل بالخدمات • فاذا ما تناولنا الوظيفة الادارية ، لاحظنا أن القاهرة قد ظلت طوال تاريخها مركزا لبيروقراطية ضخمة • فأكثر من ثلث موظفى الدولة يعيشون فيها • وتبدأ المناطق الادارية من ميدان التحرير بمجمعه الضخم لتمتد نحو ميل وصولا الى ميدان الجمهورية : قاعدة الحكم • أما الوظيفة التجارية فتتركز فى قلب المدينة حيث نجد مدى واسعا يبدأ من تجارة التجزئة والجملة حتى المؤسسات والشركات والبنوك والمحال التجارية الضخمة • وفى أطراف المدينة (باتجاه محطة مصر) توجد مخازن الجملة لقطع غيار السيارات والاطارات والادوات الكهربائية • وفى الاحياء القديمة تكثر تجارة الحرف اليدوية حتى يبدو المحل وقد خرج الى الرصيف • وفيما يتعلق بالوظيفة الصناعية فان القاهرة تعد عاصمة الصناعة المصرية • ويمكننا أن نميز بين

---

(١) جمال حمدان ، مقدمة الترجمة العربية لكتاب ديزموند ستيوارت ؛ القاهرة ؛ المرجع السابق .

(2) G. Abu-Lughod; «Tale of Two Cities : The Origins of Modern Cairo»; Comparative Studies in Society and History; 1965; pp. 429-457.

نوعين من الصناعات : صناعة خفيفة بسيطة يدوية صغيرة تقليدية ، وصناعة ثقيلة حديثة معقدة آلية • واذا كانت الصناعة الثقيلة تقع على أطراف المدينة ، فان الصناعة الخفيفة تقع فى داخلها • وتميل الصناعة الخفيفة الى التوطن فى الاحياء القديمة الفقيرة ، وان كانت أسماء الشوارع الآن لم تعد تشير كثيرا الى التخصص المهنى (النحاسين ، الفحامين ، المغربلين ••• الخ) • أما الصناعة الثقيلة الاحدث تاريخا فان عوامل الطرد تقذف بها الى أطراف المدينة • ويمكننا الاستشهاد على ذلك بقاعدتين صناعيتين هامتين تقعان فى طرفى المدينة هما : حلوان وشبرا • ففى شبرا بدأ النمو الصناعى بعد نهاية الحرب العالمية الثانية بصناعات الغزل والنسيج ثم ضمت صناعات أخرى مكملة • أما حلوان فقد شهدت نموا صناعيا قريبا لايزيد عن عقدين من الزمان الا قليلا • واذا كان الخديوى اسماعيل قد أقام هذه الضاحية لاسباب طبية أهمها الاستشفاء بالمياه المعدنية ، الا أنها ما لبثت أن تحولت خلال ستينات القرن العشرين الى غابة من المصانع والمداخن والافران تنتج القضبان والعربات الحديدية والفلنكات وأسياخ الحديد ، فضلا عن صناعة السيارات[1] • أما الوظيفة التعليمية لمدينة القاهرة فانها واضحة كل الوضوح • فجمهور الطلبة فى هذه المدينة يصل الى مليونين • وهناك تدرج تعليمى مرتبط بتدرج مكانى • فالمدارس الابتدائية تخدم الاحياء الصغيرة المحدودة ، والمدارس الثانوية تخدم أحياء أكبر • أما مدارس الجاليات الاجنبية فتقع فى قلب العاصمة التجارى • ويبدو أن التعليم العالى فى مدينة القاهرة يرتبط بالاطراف • اذ أن الجامعات تحتاج الى مساحات شاسعة من الاراضى • لذلك ليس صدفة أن تكون جامعة القاهرة فى أقصى الغرب وجامعة عين شمس فى أقصى الشرق ، تتوسطهما جامعة الازهر التى مازال تدفع ثمنا باهظا هو عدم قدرتها على الاتساع المكانى • ومن الطريف هنا أن نجد التعليم الفنى

---

(١) جمال حمدان ، مقدمة الترجمة العربية لكتاب ديزموند ستيوارت . القاهرة ، المرجع السابق .

فى مصر مرتبط بمواقع المهنة • فأغلب المدارس الصناعية تقع قرب الاحياء الصناعية (بولاق) • وأخيرا نجد القاهرة تؤدى وظيفة صحية وترفيهية هامة • فهى موقع المستشفيات المركزية الاساسية التى عادة ما تقع فى الاطراف بسبب ما تتطلبه من هدوء واتساع • ويرتبط بذلك « مدينة الاموات » التى تقع فى الجنوب الشرقى • ففى حى الامام الشافعى بدأ الاحياء يزحفون على الاموات ويطاردونهم ، حتى أن « مدينة الاحياء » قد تداخلت مع « مدينة الموتى » بصورة قابضة للنفوس • وفيما يتعلق بالترفيه نجد معظم نوادى القاهرة تقع فى المناطق الخلوية ، وان كان نادى الجزيرة ونادى الزمالك يمثلان نصف الجزيرة الجنوبى ، ويشكلان بذلك أكبر رقعة رياضية متصلة • واذا كان موقع هذين الناديين قد بدا ملائما عندما أنشأهما الاستعمار لجنوده ، فان النمو الحضرى المتصل للمدينة يفرض ضرورة اعادة النظر فى موقعهما •

ويبدو أن الهجرة الريفية الى القاهرة تشكل العامل الاساسى فى نموها السكانى • فمحور الهجرة هو من القرى الى العاصمة ، اذ ان فقر القرية المصرية هو السبب المباشر فى لفظ فائض السكان الى المدن والعاصمة على الاخص • ومن الحقائق التاريخية أن الازهر قد لعب دور هاما فى زيادة سكان القاهرة خلال القرن التاسع عشر • اذ كانت أسماء شيوخ الازهر تنسب الى قراهم الاصلية • ويمكن القول ان الازهر قد لعب بالنسبة للقاهرة فى أوائل القرن الماضى نفس الدور الذى لعبته الادارة فى أوائل القرن العشرين ، ونفس الدور الذى تقوم به الصناعة حاليا • غير أن تيارات الهجرة الريفية الى القاهرة قد تعاظمت خلال العقود الاخيرة بسبب الفارق الحضارى الهائل بين مناطق الطرد الفقيرة المزدحمة المتخلفة ومناطق الجذب الغنية المتقدمة[1] • ويبدو أن كثافة الهجرة تتناسب تناسبا طرديا

(١) للحصول على شواهد احصائية يمكن الرجوع الى دراستين احصائيتين هما : محمود عوده ، الهجرة الى مدينة القاهرة ، المجلة الاجتماعية القومية ، ١٩٧١ ، عزت حجازى ، القاهرة ، من منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، ١٩٧١ .

مع ثقل وحجم المدينة • فمعدلات الهجرة من المنوفية عالية بسبب الاكتظاظ السكانى الشديد • واذا كانت القاهرة تسحب وحدها ٥٣٪ من عـدد المهاجرين الريفيين الذين يأتون من المنوفية والقليوبية والشرقية والدقهلية، فان الاسكندرية تسحب مهاجريها من غرب الدلتا ، فى حين تسحب مدن القناة مهاجريها من شرق الدلتا • وليس من الصدفة أن يكون اتجاه الهجرة فى مصر متسقا مع اتجاه النيل : من الجنوب الى الشمال • ولقد أوضحت جانيت أبو لغد أن منطقة القاهرة الكبرى كانت تضم فى سنة ١٩٦٦ حوالى ٢٨٪ من سكان مصر ، وأن موضع هذه المدينة يجمع بين خصائص الصعيد والدلتا[١] •فالقاهرة تبدأ مدينة صعيد لتنتهى مدينة دلتا • كذلك أوضحت جانيت أبو لغد أن ٩ر٤٦٪ من المهاجرين الى القاهرة أتوا من ريف الدلتا فى مقابل ٤ر٤١٪ من ريف الصعيد ، وأن معظم مهاجرى الوجه البحـرى يقيمون فى الشمال بينما يقيم غالبية مهاجرى الوجه القبلى فى الجنوب • ولقد أوضح عزت حجازى أن صافى الهجرة الى القاهرة فى سنة ١٩١٧ مقارنا بمجموع سكان المدينة قد وصل الى ٢٠٪ ، ثم ما لبثت هذه النسبة أن ارتفعت فى تعداد ١٩٢٧ الى ٤ر٢٨٪ بسبب ظروف الحرب العالميـة الاولى •ولقد ظلت النسبة محافظة على ارتفاعها طـوال العقـود الثلاث اللاحقة حتى وصلت فى سنة ١٩٦٠ الى ٦ر٣٨٪[٢] • كذلك نجد محمود عوده يصنف جماعات المهاجرين الى القاهرة الى فئتين : تضـم الاولى الصفوة المتعلمة الساعية الى تحقيق حراك اجتماعى (٢٠٪) ، وتضم الثانية أغلبية غير متعلمة هاربة من عوامل الطرد (٨٠٪) ، وأن ٨٥٪ من المهـاجرين يقعون فى الفئة العمرية المنتجة [٣] • وتميل الدراسات التى تناولت الهجرة الريفية الى القاهرة الى تبنى مفهومى « المناطق الطاردة »

---

(1) J. Abu-Lughod; «Migrant Adjustment to City Life : The Egyptian Case»; in Gerald Breese; The City in Newly Developing Countries; op. cit; pp. 376-388.

(٢) عزت حجازى ، القاهرة ، المرجع السابق .

(٣) محمود عوده ، الهجرة الى القاهرة ، المرجع السابق .

و « المناطق الجاذبة » كأداتين تحليليتين • ومن بين العوامل الطاردة ضآلة فرص العمل فى الريف وانخفاض مستوى الدخول الزراعية • فبينما إرتفع عدد سكان مصر فيما بين سنتى ١٨٩٧ و ١٩٦٦ من ٩ر٧ مليون نسمة الى ١ر٣٠ مليون نسمة ، زادت مساحة الاراضى المنزرعة فقط من ١ر٥ مليون فدان الى ٦ مليون فدان • ومعنى ذلك أن نصيب الفرد من الارض الزراعية قد انخفض من ٥٣ر٠٪ من الفدان الى ٢٠ر٠٪ من الفدان • أما العوامل الجاذبة فتتمثل فى اتساع البناء المهنى لمدينة القاهرة وكونها مركزا ثقافيا وتعليميا وصحيا • ومن هذه الزاوية يمكن القول ان مصر لا تعانى فقط من تضخم سكانى ، بل انها تعانى أيضا من تضخم عاصمى • فبينما كانت نسبة سكان القاهرة بالنسبة لعدد سكان مصر ٦ر٧٪ فى سنة ١٩٢٧ ، ازدادت الى ٩ر١٠٪ فى سنة ١٩٤٧ ، حتى وصلت الى ١٤ ٪ فى سنة ١٩٦٦ • واذا ما أخذنا فى الاعتبار سكان القاهرة الكبرى ، فان هذه النسبة تصل فى سنة ١٩٦٦ الى ٢٠٪ • فالقاهرة تمثل أكبر قاعدة صناعية فى مصر ، وأضخم تجمع طبى ، وأكبر بناء تعليمى[1] • لذلك فان علاقة القاهرة بالمدن الاقليمية والمناطق الريفية هى علاقة « اقطاعية » أدت الى إضعاف « الطبقة الوسطى » من المدن • فمن بعد القاهرة والاسكندرية تهوى أحجام المدن التالية وتهبط هبوطا ذريعا • وفى سنة ١٩٦٠ بلغ عدد سكان القاهرة والاسكندرية نصف عدد سكان مدن مصر (٤٩ر٤٪) • والواقع أن كل المحاولات التاريخية التى حاولت جعل مصر قطعة من أوربا قد حاولت ان تجعل من القاهرة جزءا من هذه القارة • لذلك فان هذه المدينة قد بدأت تتحول من « نافورة فكرية » الى « بالوعة اقتصادية » • ان مصر هى من البلاد القليلة التى يطلق فيها اسم الدولة على العاصمة •

---

(١) يمكن الحصول على شواهد احصائية مؤيدة لذلك فى : عبد المنعم شوقى ؛ مجتمع المدينة : (الاجتماع الحضرى) ، مكتبة القاهرة الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، وكذلك مرزوق عبد الرحيم ؛ « الهجرة الريفية الحضرية فى مصر : أنماطها ودوافعها والآثار المترتبة عليها » الحلقة الدراسية الاولى لعلم الاجتماع الريفى ، منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، ١٩٧٠ .

لذلك يبدو لنا أن الاقليمية أو اللامركزية هى مطلب أساسى لتحقيق تنمية حضرية فعالة فى مصر ، بل اننى أعتقد أن حل كثير من مشكلات القاهرة يبدأ أساسا من الريف المصرى .

وتدفعنا المناقشات السابقة الى تناول العلاقة بين حجم المدينة والنمو الاقتصادى فى منطقة الشرق الاوسط بوجه عام ، خاصة وأن دول هذه المنطقة تشهد معدلات تحضر متباينة تشير الى ظروف مختلفة تبدأ من « الخلخلة الحضرية » حتى « التضخم الحضرى » . ففى كل من تركيا وايران والعربية السعودية نجد المدن الكبرى لا تضم أكثر من ٢٠٪ من سكان كل منها . أما بقية دول الشرق الاوسط فتكاد تعرف العاصمة الاساسية أو العاصمتين الاساسيتين ، مما دفع بعض الباحثين الى القول بأن معظم عواصم الشرق الاوسط هى « مدن أولى » Primate Cities تضم أعدادا ضخمة من السكان مما جعل الفارق بينها وبين المدن التالية كبيرا جدا[1] . ومعنى ذلك أن معظم دول المنطقة تفتقر الى التوازن المضرورى بين أحجام عواصمها ومدنها الرئيسية من ناحية ، وبقية مناطقها الحضرية والريفية من ناحية أخرى ، مما قد يؤدى الى التأثير على معدلات النمو الاقتصادى والتغير الاجتماعى . واذا ما قبلنا تفرقة هوسيلتز Hoselitz بين المدن « المنتجة » generative والمدن « الطفيلية » parasitic ، وجدنا كثيرا من مدن الشرق الاوسط

---

(١) من الملاحظ ان « المدينة الاولى » لا توجد فقط فى الدول النامية ، ولكنها وجدت أيضا خلال فترات تاريخية متباينة فى بعض الدول الغربية كما هو الحال بالنسبة لاستوكهولم فى السويد ، واسلو فى النرويج ، وباريس ذات مرة بالنسبة لفرنسا . ويذهب هوسيلتز الى ان معظم الوظائف الرئيسية لتلك الدول قد تركزت فى تلك المدن فى مرحلة مبكرة جدا من تاريخها . وتتخذ « المدن الاولى » فى كثير من الاحيان طابعا طفيليا . فهى تلتهم الاستثمارات وتمتص القوى العاملة وتسيطر على النمط الثقافى للدولة . انظر :

S. Mehta; «Some Demographic and Economic Correlates of Primate Cities»; in G. Breese; (ed) The City in Newly Developing Countries; op. cit; pp. 295-308.

تنتمى الى النمط الاخير الذى غالبا ما يتصف « بالتضخم الحضرى » overurbanization نتيجة لارتفاع معدلات الهجرة الريفية ــ الحضرية • وربما كانت دراسة جانيت أبو لغد عن مدينة القاهرة من أشهر الدراسات التى تناولت هذه القضية • فلقد أشارت الى أن طوفان الهجرة الريفية ــ الحضرية قد أحدث نموا سكانيا لا مبرر له فى كل من القاهرة والاسكندرية، حيث تصل نسبة السكان بهاتين المدينتين حوالى ٣٥٪ من مجموع سكان مصر ، مما يشكل عقبة أمام النمو الاقتصادى الذى يمكن أن تحققه المدن الاقليمية[١] • ولقد أشار شارل عيسوى الى شىء قريب من ذلك حينما أوضح أن مدينة طهران قد استهلكت فى سنة ١٩٦٥ حوالى ٤٠٪ من مجموع الطاقة الكهربائية الايرانية و ٥٠٪ من مجموع المنتجات البترولية المخصصة للاستهلاك المحلى • وفى العراق لوحظ أن ٦٥٪ من مجموع الاطباء يعيشون فى مدينة بغداد • ويفسر شارل عيسوى ذلك فى ضوء فكرة المركزية الادارية التى عرفتها دول الشرق الاوسط ، والتى تؤدى ــ فى نهاية الامر ــ الى حرمان المدن الصغيرة من أفرادها الموهوبين الذين يتطلعون باستمرار الى العاصمة[٢] •

والواقع أن من الصعب وصف كل عواصم الشرق الاوسط بالطابع « الطفيلى » • فلقد أشار بيرى Berry فى دراسة له تناول فيها عددا كبيرا من عواصم الدول الى أن هناك علاقة بين حجم الدولة (فى ضوء عدد السكان) وسيطرة المدينة «الاولى» • ففى الدول الصغيرة الحجم البسيطة التركيب تتاح الفرصة لنمو العواصم بينما لا تتاح لها نفس فرصة النمو فى الدول الكبيرة الحجم ذات التاريخ الطويل[٣] • واذا ما طبقنا وجهة نظر

---

(1) Abu-lughod; «Urbanization in Egypt»; Economic Development and Cultural Change; 13; 1965; pp. 313-343.

(2) Issawi; C; «Eonomic Change and Urbaniztaion in the Middle East»; in I. M. Lapidus (ed); Middle Eastern Cities; op. cit; pp. 117 ff.

(3) B. Berry; City Size Distributions and Economic Development; Chicago; 1961.

بيرى على منطقة الشرق الاوسط ، وجدنا استثناءات هامة • فعلى الرغم من أن مدن الخليج العربية قد تؤيد وجهة نظر بيرى ، الا أن القاهـرة وبغداد ودمشق لا تؤيدها • وقد يبدو من الملائم هنا مقارنة أبعاد النمو الحضرى فى كل من الدول الغربية ودول الشرق الاوسط • ففى الاولى (الغربية) بدأ النمو الصناعى فى بعض المناطق الصناعية المحورية ، ثم ما لبث بعد فترة معينة أن انتقل الى مناطق أخرى هامشية ، مما أدى الى تكثيف العمـل الصناعى فيها ورفع معدلات نموها الاقتصادى • وما التخصص الصناعى الذى عرفت به المدن الغربية الا مثالا واحـدا على ما نذهب اليه هنا • أما دول الشرق الاوسط فان الموقف مختلف تمـاما • فالدافع الى التخصص الصناعى يقل الى حد كبير بسبب ضآلة أجور العمال الصناعيين الحضريين وتضخم أعدادهم نتيجة لارتفاع معدلات الهجرة الريفية ــ الحضرية • ولقد أوضح بيرى أنه برغم حرص حكومات الدول النامية على تحقيق اللامركزية الصناعية الحضرية ، الا أن ذلك ما يزال مطلب عسير المنال[1] • وفضلا عن ذلك فان هناك اعتبارات سياسية يجب أخذها فى الاعتبار عند دراسة مدن الشرق الاوسط • ان الحدود القومية لكثير من دول هذه المنطقة قد تحددت منذ عقود قليلة • فعلى سبيل المثال تشكلت كل من المدن السورية والعراقية من خلال المتطلبات الاقتصادية التى ظهرت على وجه الخصوص بعد الحرب العالمية الاولى • وخلال القرن التاسع عشر بأكمله ظلت ايران مؤلفة من عدد من المدن الاقليمية المحيطة ببعض المناطق الزراعية ، وهو موقف مناقض تماما لما حدث فى مصر حينما كانت القاهرة هى قبلة مصر • وعلى أية حال فان كثيرا من العناصر البنائية والثقافية التى تشهدها مدن الشرق الاوسط تقترب من تلك التى تشهدها مدن العالم الثالث عموما ، خاصة اذا ما أخذنا فى اعتبارنا بعض القضايا الهامة كتأثير الاستعمار الاوربى ، والهجرة الريفية ــ الحضرية ، والتكيف الثقافى والاجتماعى • ومن بين هذه القضايا نجد الهجرة الريفية ــ الحضرية مانزال بحاجة الى المعالجة المستفيضة •

---

(1) B. Berry; The Human Consequences of Urbanization; London; 1971.

الفصل التاسع

الخروج الريفى والنمو الحضرى : الهجرة والتكيف

يصعب فهم النمو الحضرى الذى شهدته مدن الشرق الاوسط خلال العقود القليلة الماضية دون التعرف على أسباب « الخروج الريفى » . وعلى الرغم من كثرة الدراسات الاحصائية التى تناولت الهجرة الريفية ــ الحضرية ، الا أن التحليلات النظرية ما تزال محدودة للغاية . وربما كان مفهوما « منطقة الطرد » و « منطقة الجذب » من أشهر الادوات التحليلية التى استعان بها الدارسون فى دراسة عوامل الهجرة الريفية ــ الحضرية ونتائجها . ومن الطبيعى أن تختلف العلاقة بين « مناطق الطرد » و « مناطق الجذب » من دولة لاخرى فى منطقة الشرق الاوسط . ويتعين علينا الاشارة الى المعنى الذى يشير اليه هذين المفهومين . « فمنطقة الطرد » تشير الى كل العوامل التى تدفع القرويين دفعا نحو المدينة بفعل الظروف الاجتماعية والاقتصادية والفيزيقية التى تعانى منها القرية . أما « منطقة الجذب » فتشير الى كل الظروف التى تجذب المهاجرين الى المدينة بحثا عن فرص عمل أفضل وظروف معيشية أرقى[1] . ومعنى ذلك أن عوامل الطرد كامنة فى القرية بينما عوامل الجذب مكفولة فى المدينة . ان التوازن بين هذين النوعين من العوامل يتوقف على اعتبارات عديدة منها : مدى التفاوت الحضارى بين القرية والمدينة ، والموقع الجغرافى للقرية ، ونوع المواصلات التى تربطها بالمدينة ، ومعدل النمو الاقتصادى الحضرى ، وظروف العمل الزراعى وحجم الملكية الزراعية ، فضلا عن بعض السمات السيكولوجية كالدافعية والطموح والتحصيل التعليمى .

---

(1) C. J. Jansen; «Social Aspects of Internal Migration; Cambridge University Press; 1969.

وسنحاول فيما يلى مناقشة كل من العوامل « الجاذبة » و « الطاردة » فى ضوء الشواهد الواقعية التى كشفت عنها الدراسات والبحوث التى تناولت مدن الشرق الاوسط •

فاذا ما بدأنا بمناقشة العوامل « الجاذبة » وجدنا جانيت آبو لغد تؤكد فى دراستها عن مدينة القاهرة أن سكان القرى والمدن الصغيرة المصرية ينجذبون الى المدن الكبرى (وعلى الاخص القاهرة والاسكندرية) لانهم يعتقدن أنها تتيح لهم فرصا أفضل للحياة ، وأن نسبة ملحوظة من الشباب يهاجرون الى القاهرة للدراسة فى الجامعات والمعاهد العليا ، لكنهم سرعان ما يكتسبون الثقافة الحضرية فيفضلون الاقامة فيها[1] • وفى دراسة تناولت دوافع الهجرة الريفية الى طهران اتضح أن ٧٢٪ من المهاجرين فى سنة ١٩٦٦ كانوا يسعون الى الحصول على وظائف أفضل ، وأن ٢ر٥٪ فقط من المهاجرين هم الذين انتقلوا الى طهران بسبب اكمال تعليمهم • ويمكن تفسير ذلك فى ضوء ارتفاع معدلات الدخول فى مدينة طهران اذا ما قورنت بالمدن الايرانية الاخرى[2] • وفى دول الخليج العربية نلمس موقفا مختلفا • فاذا ما استشهدنا بالكويت لاحظنا نموا كبيرا فى أعداد المهاجرين خلال العقود الثلاث الماضية بعد اكتشاف النفط ، وذلك على الرغم من القيود التى تفرضها الحكومة الكويتية على الهجرة اليها نظرا لاعتبارات اثنولوجية وسكانية وسياسية • وفى العراق ازدادت الهجرة الريفية الى بغداد وعلى الاخص من المناطق العراقية الجنوبية • ويبدو أن العامل الاقتصادى هو أهم العوامل المحركة للهجرة الى بغداد • فلقد أوضح مكى عزيز أن الدخل الشهرى الذى يحصل عليه المهاجر الى بغداد (بغض النظر عن مستوى تدريبه ومهارته) يكاد يعادل الدخل

---

(1) Abu-Lughod; «Migrant Adjustment to City Life : The Egyptian Case»; in G. Breese; (ed.); The City in Newly Developing Countries; Princeton University Press; 1972; pp. 376-388.

(2) V. Costello; Kashan : A City and Region of Iran; London; 1976; esp. The Introduction.

السنوي الذي يحصل عليه القروي الذي يعمل في قرية عراقية جنوبية • ففي بغداد يستطيع المهاجر أن يحصل على عمل ملائم ، مما يمكنه من التحرر من كبار ملاك الاراضي الزراعية والمرابين • وفضلا عن ذلك سجلت هذه الدراسة ان المهاجرين الى بغداد يحصلون على فرص تعليمية ورعاية طبية لم يكونوا يحصلون عليها في قراهم الاصلية ، وأنهم قد قبلوا تماما الحياة الحضرية حتى أنهم لا يرضون عنها بديلا[1] •

وحينما نناقش العوامل « الطاردة » نجد الحروب والاضطرابات السياسية التي شهدتها منطقة الشرق الاوسط قد لعبت دورا بارزا في ظهور أنماط « استثنائية » من الهجرة ، مما كان له أكبر الاثر على الانماط الحضرية المعاصرة • فلقد أدى انشاء دولة اسرائيل الى هجرة مئات الالوف من اللاجئين الفلسطينيين الى مختلف مدن العالم العربي • غير أن نسبة كبيرة من هؤلاء اللاجئين — وعلى الاخص الفقراء منهم — قد انتقلوا الى ضواحي بيروت حيث أقاموا « مدن الصفيح » ، ثم ما لبثوا أن انتقلوا الى المناطق الجنوبية من لبنان • والواقع أن الحرب الاهلية اللبنانية التي نشبت في سنة ١٩٧٥ لا تخلو من دلالات حضرية بالغة ، اذ أنها تجسيد لما يمكن أن نطلق عليه « العنف الحضري » أو « حرب العصابات الحضرية » • ويمكننا أن نشير أيضا لحادثة أخرى شهدها الشرق الاوسط هي هجرة أعداد كبيرة من الاسر التركية من جزر بحر ايجه الى الاراضي التركية طبقا لاتفاقية لوزان التي أبرمت في سنة ١٩٢٣[2] • ولا نستطيع أن نغفل الاشارة الى ما حدث للمدن الكردية في ظل الامبراطورية العثمانية وعلى الاخص فيما قبل الحرب العالمية الاولى • فمنذ ذلك الحين ازداد الوعي القومي لدى الاقليات الكردية بسبب ظهور قيادات مثقفة استطاعت احياء نزعة الاستقلال الذاتي • ومن هذه الزاوية يمكننا فهم الصراعات الحادة التي نشأت بين الحكومة العراقية والاكراد ،

(1) V. Costello; Urbanization in the Middle East; Cambridge Univ. Press; 1977.

(2) F. Mansur; Bodrum : A Town in the Aegean; Leiden; 1972.

والتى أدت بها الى هدم كثير من القرى الكردية وهجرة سكانها الى الاحياء الكردية داخل المدن العراقية [١] .

وبالاضافة الى العوامل السياسية هناك عوامل اقتصادية « طاردة » تلعب دورا هاما فى تحديد الهجرة الريفية ــ الحضرية فى منطقة الشرق الاوسط . الا أن تأثير هذه العوامل الاقتصادية يختلف من اقليم لآخر ومن دولة لأخرى . ففى تركيا لوحظ أن الهجرة الريفية تتجه الى المدن الساحلية أكثر مما تتجه الى المدن الداخلية ، كما أنها تتجه نحو الغرب بأكثر مما تتجه نحو الشرق . ويرتبط ذلك ــ بطبيعة الحال ــ بمعدل النمو الاقتصادى فى المناطق المختلفة . فلقد أوضحت احدى الدراسات أن الهجرة الريفية فى تركيا الى المدن المطلة على البحر الاسود قد ازدادت خلال السنوات الاخيرة بسبب الرخاء الاقتصادى النسبى الذى تنعم به هذه المدن[٢] . وفى ليبيا نلمح موقفا مختلفا . فطبقا لتعداد ١٩٦٤ اتضح أن ثلاثة أرباع المهاجرين الليبيين قد اتجهوا الى مدينة طرابلس التى تمثل أكبر تجمع سكانى فى البلاد . ومن بين مبررات الهجرة الى هذه المدينة موقعها الهام ، خاصة وأنها تتمتع بظهير من الاراضى الخصبة . وفى اقليم فيزان (الذى يقع فى جنوب ليبيا) أدت صعوبات الصرف وارتفاع مستوى المياه فى الاراضى الزراعية الى هجرة أعداد كبيرة من الليبيين الى المدن . والواقع أن هذين المثلين (تركيا وليبيا) يوضحان لنا كيف أن الهجرة من المناطق الريفية قد تزداد حينما يشتد ضغط السكان على الموارد الطبيعية المتاحة .

وتنطوى الهجرة الريفية ــ الحضرية على دلالات سياسية بالغة

---

(1) R. I. Lawless; «Iraq : Changing Population Patterns»; in J. I. Clarke & W. B. Fisher (eds); Populations of the Middle East and North Africa; London; 1972; p. 104.

(2) J. Dewdney; «Turkey : Recent Population Trends»; in J. I. Clarke & W. B. Fisher (eds) Ibid; pp. 48-65.

الاهمية • فلقد لوحظ أن طبيعة المبادىء السياسية التى تتبناها حكومات دول الشرق الاوسط قد انعكست على الواقع الريفى ــ الحضرى • ففى تركيا ومصر وايران والعراق أحدثت مشروعات الاصلاح الزراعى نتائج اجتماعية ــ اقتصادية هامة • وبمقتضى هذه المشروعات تكونت طبقة وسطى ريفية نتيجة لاعادة توزيع الاراضى الزراعية التى استولت عليها الحكومات من كبار الملاك • وعلى الرغم من أن هذا الموقف قد يؤدى ــ على الاقل نظريا ــ الى تقليل معدلات الهجرة الريفية ــ الحضرية ، الا أن ذلك لم يتحقق فى الواقع • ولقد أوضحت فى موضع سابق المشكلات العديدة المترتبة على هذا النمط من الاصلاح الزراعى ، والمتمثلة فى خضوعه لبعض الجماعات الطبقية المحافظة وعدم ظهور أجهزة تعاونية بديلة قادرة على سد الفراغ الذى تركه كبار الملاك(١) • والمحقق ان نمط التطور الرأسمالى الذى شهدته بعض دول الشرق الاوسط قد أدى الى عواقب وخيمة • من ذلك انتشار البطالة بين الفلاحين ، ثم هجرتهم الى المدن لينضموا الى جماهير الفقراء الحضريين • ولقد أوضحت دراسة مصرية حديثة كيف أن القرية المصرية عبر تاريخها (وعلى الاخص فيما قبل ١٩٥٢) قد شهدت ظهور طبقات ممتازة متتابعة ، غالبا ما كانت دخيلة ، وكيف أن الفلاح المصرى على طول تاريخه قد خضع لنظام ضريبى قاس ، خلق فى نهاية الامر أرستقراطية زراعية وبروليتاريا ريفية واسعة النطاق(٢) • ويمكننا أن نضيف الى ذلك عوامل أخرى قد تسهم فى دفع الريفيين الى ترك قراهم لهثا وراء سراب المدن • فالانتاجية الزراعية ضئيلة الى حد بعيد ، فى الوقت الذى ترتفع فيه نسبة العمالة الزراعية الى درجة عالية • يضاف الى ذلك استغلال الوسطاء والمرابين للفلاحين ، مما يعنى ابتلاع الفائض

---

(١) السيد الحسينى ، القرية فى الدول النامية ، دراسة نقدية لاتجاهات التغير الاجتماعى ، فى : السيد الحسينى وآخرون ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٨ ، ص ص ٣٩٠ ــ ٣٩٨ .

(٢) محمود عوده ، القرية المصرية بين التاريخ وعلم الاجتماع ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، الفصل الرابع .

النقدى الذى قد يحققونه[١] • ومن هنا نستطيع أن نفهم استمرار ارتفاع معدلات الهجرة الريفية ــ الحضرية فى معظم دول الشرق الاوسط برغم مشروعات الاصلاح الزراعى التى تمت فى مصر والعراق وايران وتركيا • وهناك شواهد تشير الى أن الاصلاح الزراعى فى كثير من دول العالم الثالث لا يحدث نتائجه الايجابية الا فى المدى البعيد[٢] ، خاصة اذا ما ترتب عليه ادخال أساليب انتاجية جديدة واعادة توزيع حقيقى للملكية الزراعية • وفى العراق لوحظ أن القرى قد بدأت تفقد خلال عقدين من الزمان نسبة كبيرة من شبابها النشطين بسبب الهجرة الى المدن العراقية ، مما أدى الى انخفاض الانتاجية الزراعية بسبب استمرار أساليب الانتاج التقليدية• وتواجه الحكومات العراقية فى بعض الاحيان موقفا تواجهه معظم حكومات دول الخليج العربية وهو تخصيص جزء من عائدات النفط لاستيراد محاصيل زراعية من الخارج [٣] •

ومن الطبيعى أن تؤثر الظروف الديموجرافية والاقتصادية لمدن الشرق الاوسط على الحياة الاجتماعية للمهاجرين الريفيين الذين يفدون اليها • فلقد أبدت بعض الدراسات الحديثة اهتماما بالعمليات الايكولوجية والاجتماعية المرتبطة بالهجرة الى مدن الشرق الاوسط ، حيث أشارت جانيت أبو لغد الى أن القرويين الذين يهاجرون الى القاهرة يقيمون عند وصولهم فى مناطق الاطراف التى تتعايش فيها أساليب الحياة الحضرية والريفية ، فضلا عما تتميز به هذه المناطق من تجانس عنصرى وروح دينية قوية ومعدلات عالية من الامية والخصوبة ، وتلك خصائص تكاد تميز

---

(1) S. Saul and R. Woods; «African Peasantry»; in T. Shanin; (ed); Peasants and Peasant Societies; Penguin Books; pp. 60 ff.

(2) A. G. Frank; Capitalism and Underdevelopment in Latin America; Penguin Books; 1969.

(3) R. A. Fernea; «Land Reform and Ecology in Post-Revolutionary Iraq»; Economic Development and Cultural Change; 17 (1969); pp. 356-381.

الريف المصرى بأكمله[1] • كذلك أوضح بيترسين Petersen فى دراسته عن الهجرة الى القاهرة أن المهاجرين الريفيين الجدد يميلون الى الاستقرار على الحدود الريفية ــ الحضرية للمدينة ، مفضلين ذلك على الاقامة فى الاحياء الداخلية المزدحمة التى تتميز بمعدلات عالية من الامية وقدر كبير من التجانس الدينى[2] • ويبدو أن بيترسين قد قصد من دراسته القاء الشكوك حول الفكرة الذاهبة الى أن المهاجرين الى القاهرة يميلون الى تكوين « جيوب » حضرية صغيرة تعبر عن القرى التى أتوا فيها • ولقد أوضح مسح لمدينة طرابلس الليبية فى سنة ١٩١٧ أن الاسر المهاجرة من اقليم مصراطه والاقاليم الاخرى كانت تعيش جنبا الى جنب ، حتى أنها قد شكلت مجتمعات محلية متجانسة الى حد بعيد • بيد أن الاحياء المتخلفة فى المدينة ما لبثت أن ظهرت بعد الاحتلال الايطالى ، مما أدى الى ظهور نويات حضرية متباعدة تستقبل المهاجرين ذوى الاصول الريفية الواحدة • ويبدو ان طهران تشهد وضعا مختلفا فى هذا المجال • فهى لاتكاد تشهد أحياء متخلفة على نطاق واسع ، لان المهاجرين الى المدينة سرعان ما يكتسبون عناصر الحياة الحضرية ويتوحدون معها • ومع ذلك فلقد لوحظ أن معظم المهاجرين الفقراء يميلون الى الاقامة فى الاحياء الجنوبية من طهران ، وهى أحياء متاخمة لحدود صحراوية ، كما أنها أكثر دفئا من الاحياء الشمالية المتاخمة للحدود الجبلية • على أن حركة المهاجرين الى المدينة وداخلها قد تتم من خلال عدة مراحل واضحة المعالم • ففى مدينة مشهد بايران ، لوحظ أن المهاجرين الجدد قد شكلوا فى البداية أحياء غير مستقرة قريبة من المركز التجارى حيث تتميز بزيادة نسبة الذكور على نسبة الاناث بشكل طاغ • وفى مرحلة لاحقة بدا المهاجرين فى الانتقال الى الاحياء التى تتيح لهم فرص العمل الدائم المستقر •

ومن الصعب فهم الهجرة الريفية ــ الحضرية فى ضوء المفاهيم

(1) J. Abu-Lughod; «Migrant Adjustement to City Life....»; op. cit.

(2) K; K: Petersen; «Demographic Conditions and Extended Family Households : Egyptian Data»; Social Forces; 1968; pp. 531-537.

الديموجرافية وحدها • اذ أن العوامل والمتغيرات الاجتماعية تلعب دورا هاما فى تشكيل معدلاتها وتحديد نتائجها • وربما كان موضوع التكيف الاجتماعى للمهاجرين الى المدن من أكثر الموضوعات التى أولاهـا علماء الاجتماع الحضرى عنايتهم واهتمامهم • غير أن ما يعنينا هنا هو التعرف على ملامح عملية التكيف الاجتماعى للمهاجرين الى مدن الشرق الاوسـط والدور الذى تلعبه الاسرة والقرابة والجماعات الاجتماعية الاخـرى فى هذا المجال • ونحن لا نزعم أن مدن الشرق الاوسط تشهد ظروفا فريدة فيما يتعلق بالتكيف الاجتماعى للمهاجرين ، اذ أن المدن الافريقية والآسيوية تشهد ظروفا مشابهة • ومع ذلك فاذا كان للخصوصيات الثقافية والبنائية أن تلعب دورها ، تعين علينا التعرف على تلك الملامح المتميزة التى تحـدد طابع التكيف الاجتماعى للمهاجرين الى مدن الشرق الاوسط • ومنذ البداية نجد ضرورة لتأكيد قضية أولية هى ، أن التنظيم العائلى التقليدى الـذى تشهده منطقة الشرق الاوسط يرتبط أوثق الارتباط بالاختلافات الايكولوجية التى تميز أساليب الحياة البدوية والريفية والحضرية • ويميل كثير مـن علماء الاجتماع الى تأكيد انتشار الاسرة الممتدة فى دول الشرق الاوسط ، وان كان هذا الانتشار يختلف من منطقة لاخرى • فهو فى الهلال الخصيب أكثر وضوحا منه فى وادى النيل[1] • وحينما يؤكد هؤلاء العلماء سيطرة الاسرة الممتدة فى منطقة الشرق الاوسط ، فانهم يقصدون بذلك اقامة أكثر من جيل داخل المسكن واشتراكهم فى حياة عائلية واحدة ، حيث تعد الاسرة وحدة مالكة يشرف عليها الاب طبقا للصلاحيات التى تمنحها له الشريعة الاسلامية [2] •

على أن مسلمة الاسرة الممتدة فى منطقة الشرق الاوسط قـد تعرضت لانتقادات عديدة • فلقد تساءل بيترسين Petersen عن مـدى شيوع

---

(1) G. Baer; Population and Society in the Arab East: London; 1964.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر علياء شـكرى ، الاتجاهات المعاصرة فى دراسة الاسرة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الاسرة الممتدة الابوية فى مصر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ، وانتهى الى رفض هـذه القضية استنادا الى اعتبـارات ديموجرافية • فالزواج بالنسبة للذكور المصريين (سواء فى المدينة أو القرية) لا يتم قبل وصولهم سن الخامسة والعشرين • واذا ما علمنا أن معدلات الوفيـات فى مصر ظلت مرتفعة لفترة طويلة ، فان فرصـة الاب فى أن يرى أبنائه متزوجين تكاد تكون محدودة ، كما أن فرصته فى أن يرى أحفاده تقل عن ذلك بسبب ارتفاع معدلات وفيات الاطفال[1] • وأعتقد أن وجهة نظـر بيترسين لا تنطبق فقط على مصر ، بل تنطبق أيضا على كثير من شـعوب الشرق الاوسط ، مما يدفعنا الى التحفظ على كثير من المسلمات المتعلقة بشيوع الاسرة الممتدة فى هذه المنطقة من العالم • وربما كانت الالتزامات الجماعية هى أكثر السمات المميزة للاسرة الشرق الاوسطية • ففى كثير من الاحيان يقوم الابناء الراشدون بتقديم الدعم المادى لاسر آبائهم حتى ولو كانوا (أى الابناء) يعيشـون فى ظل حياة أسرية مستقلة[2] • فمن الشواهد المألوفة أن يساعد الاخ الاكبر الاخ الاصغر على اكمال تعليمه اذا ما كان الاب عاجزا عن تقديم هذه المساعدة • كما أن الفتـاة غـير المتزوجة تكون موضع اهتمام الابوين وأخوتها حتى زواجها • واذا ما طلقت المرأة أو ترملت ، عادت الى منزل أحد أخوتها ، لان فى رعايتهـا والاهتمام بها شرف للعائلة[3] • والواقع أن مفهوم « الشرف العائلى » ليس مقصورا على منطقة الشرق العربى ، ذلك أن بعض الدراسـات قد أوضحت مدى شيوع هذا المفهوم فى تركيا أيضا •

وفى ضوء هذه التصورات يمكننا التعرف على النتائج الاجتماعية التى تحدثها الهجرة الريفية ــ الحضرية على أسرة الشرق الاوسط • فمن

---

(1) K; K; Petersen; «Demographic Conditions and Extended Family Households : Egyptian Data»; op. cit.

(2) T. Prothro; L. Diab; Changing Family Patterns in the Arab East; American University of Bierut; 1974.

(3) J. Gulick; Tripoli : A Modern Arab City; Cambridge; Mass : 1967.

وجهة النظر الديموجرافية ، نجد أن معظم المهاجرين الى المدن ينتمون الى الفئة العمرية الشابة ، ثم يلتحقون بأعمال حضرية تحقق لهم الاستقلال الاقتصادى عن آبائهم المقيمين فى الريف • وفى بعض الاحيان قد يرسل الابناء لآبائهم بعض المساعدات المالية • ولنا أن نتوقع بعد ذلك تغير نمط السلطة فى الاسرة الريفية الاصلية للمهاجر • اذ تتقلص الادوار التقليدية للأب ، تلك السلطة التى كانت تتخذ مظاهر عديدة من بينها اختيار قرينات أبنائه ودفع المهور وتحديد مواعد الزفاف • وفضلا عن ذلك فان الهجرة الى المدينة تقلل من فرص زواج الابناء من بنات العمومة أو الخئولة بسبب اتساع نطاق عملية الاختيار للزواج • ولقد أوضحت دراسة حديثة لنا أن التعليم الجامعى فى مدينة الدوحة قد أحدث تغيراً كبيرا على نمط اختيار القرناء والقرينات[1] • وفى معظم مدن الشرق الاوسط نجد العوامل الديموجرافية تسهم فى حدوث تغيرات اجتماعية هامة • ومن بين هذه العوامل الديموجرافية نجد ارتفاع معدلات الزيادة الطبيعية وانخفاض معدلات الوفيات وزيادة نسبة المستقلين اقتصاديا • ففى تركيا نجد فروقا ريفية ــ حضرية واضحة فيما يتعلق بهذه الخصائص الديموجرافية حيث بلغت معدلات المواليد ٤٩ فى الالف ، بينما لم تتجاوز فى المناطق الحضرية ٢٤ فى الالف • ولقد أوضحت احدى الدراسات أن معدلات المواليد فى تركيا ترتفع فى المناطق الريفية التى تزداد فيها نسبة الامية وتقل فيها العيادات الطبية التى تقدم النصح والمشورة للراغبين فى تنظيم النسل[2] • كذلك فلقد لوحظ ارتفاع فى نسبة الذكور وانخفاض فى نسبة الاناث فى المدن التركية الاساسية ، حيث بلغت هذه النسبة ١١٦٨ من الذكور لكل ألف من الاناث ، بينما كانت هذه النسبة فى القرى التركية ٩٠٧ من الذكور لكل ألف من الاناث • ويمكننا أن نجد بيانات مشابهة فى ايران • ففى

---

(١) السيد الحسينى وجهينه العيسى ، الاتجاهات والقيم المرتبطة بالزواج لدى الشباب القطرى ، حولية كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية ، جامعة قطر ، تحت الطبع .

(2) J. Dewdney; Turkey; London; 1971; p. 59.

سنة ١٩٦٦ بلغت هذه النسبة فى المدن الايرانية الكبرى ١٠٨٤ من الذكور لكل ألف من الاناث • وفى جده بلغت هذه النسبة ١٣٢٦ من الذكور لكل ألف من الاناث وذلك فى سنة ١٩٦٣ • وفيما يتعلق بدول الخليج العربية سجلت احدى الدراسات الاحصائية ارتفاعا ملحوظا فى نسب الذكور وانخفاضا مقابلا فى نسب الاناث • ففى الامارات العربية ـ مثلا ـ وصلت نسبة الذكور فى سنة ١٩٧٥ حوالى ٦١٫٣٪[١] • ومهما قيل عن اختلال التوزيع النوعى للسكان فى مدن الخليج العربية ، فان هذا الاختلال يتضاءل كثيرا أمام الشذوذ النوعى الذى تشهده المدن الافريقية حيث قد تصل نسبة الذكور الى خمسة أو ستة أضعاف نسبة الاناث[٢] •

على أن حالة مصر تتطلب منا بعض التأمل • فلقد أوضحت جانيت أبو لغد أن معدلات الخصوبة فى الحضر المصرى تقل عن نظيرتها فى الريف المصرى[٣] ، وأن هذا النمط يكاد يكون شائعا فى ليبيا ولبنان ، بينما لا يكاد يوجد فى كل من تركيا وايران وسوريا والعربية السعودية على نحو ما أوضحنا قبل قليل • ومعنى ذلك أن حالة مصر وبعض بلدان الشرق الاوسط لا تؤيد القضية الشائعة الذاهبة الى أن معدلات الخصوبة فى الحضر تقل عن نظيراتها فى الريف • كذلك أوضحت جانيت أنه بسبب عدم وجود فروق واضحة فى معدلات الخصوبة بين كل من الريف والحضر فى مصر ، فان الزيادة الطبيعية تسهم بنصيب كبير فى النمو السكانى للمدن ، على الرغم من وجود علاقة واضحة بين الهجرة والنمو الطبيعى للسكان[٤] • وفى

---

(١) جامعة الدول العربية ، الامانة العامة ، الجهاز الاحصائى ، جدول رقم (١) •

(2) D; J; Dwyer (ed); The City in the Third World; London; 1974.

(٣) يمكننا أن نجد تأييدا جزئيا لهذه القضية فى دراسة مصرية اجريت فى منتصف الستينيات . انظر : عبد الخالق ذكرى ومرزوق عبد الرحيم ، الاتجاه نحو تنظيم الاسرة فى قرية مصرية ، الحلقة الثانية للدراسات والبحوث الاحصائية ، القاهرة ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ص ١٩٩ — ٢٢١ •

(4) J. Abu-Lughod; «Migrant Adjustement to City Life....» op. cit.

دراسة لى عن الفروق الريفية ــ الحضرية فى بعض الخصائص السكانية فى مصر ، اتضح وجود فروق فى خاصيتين ديموجرافيتين هما : المهنة والتعليم ، بينما لم تظهر فروق فى خاصيتين ديموجرافيتين أخريين هما : العمر والحالة الزواجية ، وذلك على مستوى الوحدات البنائية المتباينة الاحجام • وفى ضوء هذه الشواهد يبدو لنا أن مفهوم « المتصل الريفى ــ الحضرى » لم يتحقق واقعيا بالنسبة للوحدات البنائية المصرية • فاذا كان هذا المتصل يقوم على دعامتى التدرج المستمر والتباين المتسق ، فاننا نستطيع القول بأننا لم نتمكن من الحصول الا على شكل ضعيف نسبيا للمتصل قوامه المهنة والتعليم [١] •

وفى ضوء هذه الخصائص الديموجرافية يمكننا التعرف على عملية التكيف الاجتماعى المصاحبة للهجرة الريفية ــ الحضرية فى دول الشرق الاوسط • إذ تميل معظم الدراسات التى أجريت فى هذا المجال الى تأكيد عدد من العمليات الاساسية التى تتميز بقدر كبير من الشيوع • فلقد أوضحت دراسة عن المهاجرين الى مدينة طرابلس الليبية أن استمرار وفود المهاجرين يحول دون ظهور روابط قوية توحد بينهم ، وذلك بسبب نمو المهن الحضرية الجديدة واضطرار المهاجرين الى العمل فى مناطق مختلفة ومتباعدة[٢] • غير أن القاهرة تشهد موقفا متباينا • فالمهاجرون الجدد اليها يلقون مساعدة كبيرة من زملائهم القدامى سواء فيما يتعلق بالحصول على أعمال تتناسب مع قدراتهم أو التكيف مع الثقافة الحضرية بوجه عام[٣] • ولقد أوضحت احدى الدراسات أن المهاجرين الاميين الى مدينة

---

(١) السيد الحسينى ومحمد على محمد ، الفروق الريفية ــ الحضرية فى بعض الخصائص السكانية ، تحليل احصائى ، الحلقة الدراسية الاولى لعلم الاجتماع الريفى فى مصر ، منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، ١٩٧١ .

(2) V. F. Costello; Urbanization in the Middle East; Cambridge University Press; London; 1977; p. 56.

(3) J. Abu-Lughod; «Migrant Adjustement to City Life....»; op. cit.

القاهرة يلتحقون عادة بأعمال بسيطة (كالتجارة المتجولة) لا تتطلب منهم تكيفا شخصيا كبيرا • كذلك فان المؤسسات الرسمية المعنيـــة بالعمالة لا تلعب دورا كبيرا فى تكيف المهاجرين مع الحياة فى مدينة القاهرة • وبدلا من ذلك تلعب جماعات القرابة والجيرة دورا هاما فى تكيف المهاجرين مع الحياة الحضرية[1] •

ويبدو أن ثقافات مجتمعات الشرق الاوسط تميل الى تأكيد أهمية العلاقات الشخصية والقرابية التى قد تصل الى حد كبير من الاتســـاع ، حتى أن الفرد لا يجد ضرورة لاقامة أشكال أخرى من العلاقات • ويمكننا أن نجد انعكاسا لذلك على مدن الشرق الاوسط • ففى مدينة الدوحـــة ـــ مثلا ـــ نجـــد الاحياء ترتبط بأسماء بعض القبائل • وقد يكـــون من الطريف أن نشير هنا الى أن هذه المدينة لم تستشعر بعد ضرورة منـــح شوارعها أسماء وبيوتها أرقاما ، على الرغم من النمو العمرانى والسكانى الذى شهدته خلال السنوات الاخيرة • وينطبق ذلك ـــ بدرجات مختلفة ـــ على بقية مدن الخليج العربية • ومن اليســـير فهم الدور الـــذى تلعبه الجماعات القرابية فى عملية تكيف المهاجرين الى مدن الشرق الاوسط اذا ما أشرنا الى طابع البناء التقليدى الذى يميز الحياة الاجتماعية فى هـــذه المنطقة من العالم • فلقد أوضح جبرائيل باير Baer أن الولاء للجماعات القرابية يتم من خلال الانحدار من سلف واحـــد ، مما يدعم الاحســـاس بالانتماء الجماعى لاجيال عديدة[2] • ومن خلال هذه القضية يمكن تفسير الانماط الايكولوجية التى تتخذها القرية بخاصة والمدينة بعامة • ولقـــد أوضحت قبل قليل أن الطابع الحضرى لمدن الخليج العربية يكاد يكـــون انعكاسا العلاقات القرابية السائدة • فكلما اتســـع نطاق هذه العلاقات ،

---

(1) K; K; Petersen; «Villagers in Cairo : Hypotheses Versus Data»; American Journal of Sociology; 77; 1971; pp. 550-573.

(2) G. Baer; Population and Society in the Arab East; London; 1964; p. 169.

كبر حجم الحى مكانيا وسكانيا • وعلى الرغم من التحولات التى شهدتها مدن الشرق الاوسط خلال السنوات الاخيرة والتى انعكست بالتالى على طبيعة العلاقة بين القرابة والطابع الحضرى ، الا أن العلاقات القرابية مانزال تلعب دورا هاما • ففى بيروت التى تعد من أكثر مدن الشرق الاوسط انفتاحا على العالم تؤدى القرابة وظائف هامة • اذ أنها مانزال تعد من أهم وسائل الحصول على مزايا سياسية واقتصادية[1] • ولقد أوضحت دراسة مكى عزيز عن الهجرة الريفية الى مدينة بغداد أن الجماعات القرابية الحضرية تسهم فى تكييف المهاجرين الجدد مع الحياة الحضرية • اذ أن هؤلاء المهاجرين يكونون تصورات معينة عن الفرص المهنية المتاحة فى المدينة قبل وصولهم اليها ، وذلك من خلال المهاجرين القدامى الذين يزورون قراهم الاصلية من وقت لآخر • كذلك أوضح عزيز ان الهجرة الى بغداد لا تتم على مرحلة واحدة ، اذ يسبقها هجرة الى مدينة الكوت حيث يقضى المهاجر فترة معينة يتمكن خلالها من جمع بعض المدخرات والحصول على مزيد من المعلومات عن بغداد • وما أن يصل المهاجرون الجدد الى بغداد حتى يلجأون الى أقاربهم الحضريين ، فيقيمون معهم ويسهمون فى تكاليف الحياة المشتركة ولا يترددون فى اتخاذ الحصير فراشا لهم • ويحاول المهاجرين خلال تلك الفترة الحصول على أعمال تتلاءم معهم، فيطرقون أبوابا عديدة تبدأ بالمؤسسات الرسمية حتى المشروعات التجارية الصغيرة الخاصة • وتتميز الاحياء التى يقطنها هؤلاء المهاجرين بالازدحام الشديد اذا ما قورنت بالقرى التى أتوا منها • وعلى الرغم من ذلك فلقد سجل مكى عزيز استمرار العلاقات القبلية أو العرقية داخل هذه الاحياء • فأفراد كل قبيلة يتبرعون بالاموال لبناء أماكن عامة لاستقبال الضيوف ، كما تقام مقاهى شعبية عامة يلتقى فيها المهاجرون الذين ينتمون الى نفس القبيلة[2] • ومن ذلك يبدو واضحا أن العلاقات القرابية تلعب دورا كبيرا فى مساعدة المهاجرين على التكيف مع الحياة الحضرية الجديدة •

---

(1) J. Gulick; Tripoli : A Modern Arab City; op. cit.

(2) V. F. Costello; Urbanization in the Middle East; op. cit; p. 58.

وعلى الرغم من أن الدراسات التى تناولت المهاجرين الى مدن الشرق الاوسط قد أجمعت على أهمية الدور الذى تلعبه الجماعات القرابية فى تكيفهم الاجتماعى مع الحياة الحضرية ، الا أن هذه الدراسات لاتتفق جميعها حول طبيعة التغيرات الشخصية التى تطرأ على المهاجرين نتيجة لاحتكاكهم بالثقافة الحضرية • فلقد أوضح دانيل ليرنر Lerner أن مجرد الاقامة فى مدينة لا يعنى ــ بالضرورة ــ تكوين نظرة « حديثة » للفرد • ويؤكد ليرنر أن معرفة القراءة والكتابة ، والتفاعل مع أساليب الاتصال الجماهيرى ، يمكنان الفرد من الانفتاح مما يؤدى به فى نهاية الامر الى اكتساب خصائص الشخصية « الحديثة » • كذلك فان التعاطف مع الآخرين empathy يتيح للفرد فرصة تكوين اتجاهات عامة • ويميز ليرنر بين مراحل مختلفة للتحضر فى مجتمعات الشرق الاوسط • هناك التحضر المكانى الذى يتمثل فى انتقال مجموعة من القرويين الى المراكز الحضرية المجاورة • وحينما تصل نسبة سكان الحضر الى ١٠ ٪ من مجموع السكان ، وتصل نسبة الذين يعرفون القراءة والكتابة الى ٤٠٪ ، تظهر مرحلة جديدة من التحضر • وفى المرحلة الاخيرة تلعب كل من وسائل الاتصال الجماهيرى والمشاركة السياسية دورا كبيرا فى تشكيل الحياة الحضرية[1] • على أن ليرنر قد ميز بين ثلاثة أنماط من الشخصية فى مجتمعات الشرق الاوسط • أما النمط الاول فيضم « الحديثين » moderns الذين يتصفون عادة بالانفتاح على العالم ، ومعرفة القراءة والكتابة ، والاقامة فى المدن ، وتبنى آراء عديدة حول مختلف القضايا والمواقف • أما النمط المقابل فيشمل التقليديين traditionals الذين يتسمون بالانغلاق حول الذات والامية والاقامة فى القرى وعدم المبالاه بأمور الآخرين

---

(1) D. Lerner; The Passing of Traditional Society. Modernising of Middle East; London; 1964.

يمكننا ان نشير الى دراستين عربيتين استعانتا بمفاهيم ليرنر بطرق مختلفة فى دراسة التغير الاجتماعى والتحديث انظر : محمود عوده ، أساليب الاتصال والتغير الاجتماعى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧١ ، وجهينه العيدى ، التحديث فى المجتمع القطرى ، دار كاظمة ، الكويت ، ١٩٧٩ .

والتمسك بآراء جامدة نمطية . ويتوسط هذين النمطين نمط ثالث يضم « الانتقاليين » transitional الذين يشاركون « الحديثين » بعض الخصائص كالتعاطف من الآخرين ، لكنهم يفتقدون مقومات العناصر الحديثة كمعرفة القراءة والكتابة . ولقد وجد ليرنر أن الاميين الذين يعيشون فى مدن الشرق الاوسط يكونون آراء وتصورات عن الحياة أكثر تنوعا من قرنائهم الاميين الذين يعيشون فى المناطق الريفية ، كما أوضح أن « الانتقاليين » يولدون عادة فى مناطق ريفية أو مدن صغيرة ، لكنهم مايلبثوا أن يقيموا بعد ذلك فى مناطق حضرية أكبر[1] . وعلى الرغم من الانتقادات العديدة التى يمكن أن توجه الى تصنيف ليرنر ، الا أنه قد يصلح لكشف التنوعات المختلفة التى ينطوى عليها السلوك الريفى — الحضرى فى سياقات مختلفة[2] .

واذا كانت الحركة الكلية للمهاجرين الى المدن تتوقف على العوامل الاقليمية والاجتماعية والاقتصادية ، الا أن قرار كل مهاجر بالانتقال الى المدينة والتكيف مع حياتها انما يتوقف على دوافعه وامكانياته الذاتية . فلقد أوضحت دراسة تركية أنه كلما كبر سن المهاجر الى مدينة أنقره ، قلت فرص مشاركته فى الحياة الحضرية عموما ، وازدادت صلته بالثقافة الريفية التى كان ينتمى اليها . وتنتهى هذه الدراسة الى نتيجة هامة مؤداها ، أن الهجرة الريفية — الحضرية فى تركيا تبدو انتخابية . فالغالبية العظمى هم القادرون على الدخول فى الحياة الحضرية وتمثلها واستدماجها[3] . وفى دراسة أخرى تناولت الهجرة الى مدينة طرابلس الليبية ، اتضح « تفاوت ملحوظ » بين المهاجرين فى درجة تمثل الثقافة

---

(1) D. Lerner; The Passing of....op. cit; p. 162.

(٢) ناقشت هذه الانتقادات فى موضع آخر . انظر السيد الحسينى ، اتجاهات علم الاجتماع فى فهم مشكلات الدول النامية » فى : السيد الحسينى وآخرون ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، المرجع السابق ، ص ص ١٠٢ وما بعدها .

(3) V. F. Costello; Urbanization in the Middle East; op. cit; p. 60.

الحضرية (قيست فى ضوء القدرة على التعاطف مع الاخرين . والاتجاه نحو تحرر المرأة ، ودرجة التدين ، ومستوى المشاركة فى الحياة الحضرية)• ومرة أخرى نجد العمر هنا يلعب دورا حاسما • فالمشاركة فى الحياة الحضرية تقل بشكل ملحوظ بالنسبة للمهاجرين من كبار السن • كذلك فان التعليم يلعب دورا وسيطا بالغ الاهمية • فذوو المؤهلات التعليمية العليا من المهاجرين يتكاملون بشكل أقوى وأعمق مع الحياة الحضرية ابتداء من العلاقات الشخصية حتى وسائل الاتصال الجماهيرى[1] • واذا ما أضفنا نتائج دراسة ليرنر Lerner الى نتائج الدراستين التركية والليبية ، اتضح لنا أن التحديث بعامة والتكيف الحضرى بخاصة ، يتوقفان على مجموعة من الظروف الاقتصادية والاجتماعية والاقليمية والثقافية • أما الوصول الى نظرية عامة تفسر كل ذلك فى منطقة الشرق الاوسط فلايزال أملا بعيد المنال بسبب الندرة النسبية للدراسات التى تتناول التكيف الحضرى فى مجتمعات هذه المنطقة •

ولا نستطيع اغفال الدور الذى تلعبه وسائل الاتصال الجماهيرى فى تكيف المهاجرين الريفيين الى مدن الشرق الاوسط • فلقد أوضحت الدراسة الليبية التى أشرنا اليها قبل قليل أن وسائل الاتصال الجماهيرى والتعليم يلعبان دورا هاما فى عملية التكيف الحضرى • ويختلف التعليم عن وسائل الاتصال الجماهيرى فى قدرته على فرض أنماط سلوكية على جماعات عمرية واحدة • كذلك فلقد أشار ليرنر الى أن مجتمعات الشرق الاوسط تشهد علاقة وثيقة بين معرفة القراءة والكتابة ووسائل الاتصال الجماهيرى • فالذين يقرأون الصحف والمجلات هم القادرون اقتصاديا على الذهاب الى السينما من حين لآخر ، وهم أيضا القادرون على اقتناء أجهزة الراديو[2] • ومن هنا نستطيع أن نفهم سبب تأكيد بعض علماء الاجتماع للدور الذى تلعبه وسائل الاتصال فى التمييز بين القرية والمدينة • ولقد

---

(1) Ibid; p. 61.

(2) D. Lerner; The Passing of ..... op. cit; p. 235.

أوضح ليرنر أن السينما فى مدن الشرق الاوسط تلعب دورا تثقيفيا بالغ الاهمية • واذا ما أخذنا فى الاعتبار أن دراسة ليرنر قد أجريت فى أوائل الخمسينات (١٩٥١ / ١٩٥٢) ، فان لنا أن نتوقع الآن دورا هائلا يلعبه التلفزيون فى ريف وحضر الشرق الاوسط على السواء • وعلى الرغم من أن معظم وسائل الاتصال الجماهيرى فى منطقة الشرق الاوسط تخضع للرقابة الحكومية ، الا أن ذلك لا يقلل من أهمية دورها التثقيفى • ومع ذلك نجد بعض الدارسين يذهبون الى ان السينما والراديو لا يلعبان الدور الاكبر فى تشكيل السلوك الحضرى فى مجتمعات الشرق الاوسط • ففى تركيا أوضحت احدى الدراسات[1] أن تغير الاتجاهات السياسية فى الريف التركى كان يتم من خلال الاتصالات الشخصية بين الناس أكثر مما يتم من خلال برامج وسائل الاتصال الجماهيرى • وفى دراسة حديثة أوضحت جانيت أبو لغد أن الاتجاهات السياسية للمهاجرين الى المدن المصرية تختلف باختلاف مكاناتهم الاجتماعية وأساليب تكيفهم مع الحياة الحضرية • فالذين يفضلون البقاء فى القرى المصرية يحاولون المشاركة فى السياسة المحلية والحصول على رموز المكانة من خلال العمل السياسى الاقليمى • وينطبق ذلك أيضا على الذين يهاجرون الى المدن لفترة قصيرة يظلون خلالها على صلة وثيقة بالتطورات التى تحدث فى قراهم • أما المهاجرون الذين يقررون الاقامة الدائمة فى المدن بهدف الحصول على المؤهلات الجامعية العليا ، فانهم يرتبطون — فى نهاية الامر — بالصفوة الحضرية التى تسهم فى توجيه السياسة القومية • كذلك نجد الذين ينتقلون الى المدن لأداء الخدمة العسكرية ويقررون الاقامة الدائمة فيها بعد ذلك ، يبدون اهتماما سياسيا ، وان كان ذلك يتوقف على طبيعة مهنهم وأماكن عملهم • أما أفقر المهاجرين الذين يتركون القرى فهم أولئك الذين لا تتاح لهم فرصا اقتصادية ملائمة ، مما يدفعهم الى الالتحاق بالأعمال اليدوية غير الماهرة • وفى معظم الاحيان يظل هؤلاء المهاجرون الفقراء بمنأى عن القضايا السياسية العامة ، وان كانت السنوات الأخيرة قد برهنت على

(1) V. F. Costello; Urbanization in the Middle East; op. cit; p. 66.

امكانية استخدامهم فى المظاهرات السياسية فى مدينتى القاهرة والاسكندرية[1] • ويبدو أن هؤلاء المهاجرين الفقراء هم أكبر مصدر للتجمعات الجماهيرية العامة المصرية • فبفضلهم شيع جثمان مطربة الشرق « أم كلثوم » (١٩٧٥) فى موكب مهيب لم يحظ به جثمان تشيرشل أو ستالين •

وفى لبنان أوضح فؤاد خورى فى دراسة له على ضاحيتين لبنانيتين ان الهجرة الريفية الى المدينة تؤدى الى تحول الولاء من العائلة فى القرية الى المذهب الدينى فى المدينة[2] • ومع ذلك فان العائلة قد تكتسب مزيدا من التضامن والدعم اذا ما تعرضت قيمتها الأساسية للانتهاك • وفى القرى التى تقطنها جماعات قرابية متباينة تتاح الفرصة لظهور صراعات عديدة • ولقد أشار خورى أيضا الى أن المذهب الدينى يلعب دورا هاما فى تشكيل السياسة القومية فى لبنان ، وان كان لا يلعب مثل هذا الدور على مستوى القرية اللبنانية • ففى القرى تعيش جماعات المسلمين (من الشيعة والسنة) والمارونيين المسيحيين فى شبه حالة سلام حيث تتبادل الزيارات من حين لآخر • على ان الحرب الأهلية التى تشهدها لبنان منذ سنة ١٩٧٥ تكشف عن أن « السلام » الذى يشير اليه خورى هو سلام « مصطنع » لا يعبر تماما عن طبيعة الأشياء •

وقد يكون من المفيد ان نختتم هذه المناقشة بالاشارة الى مكانة المرأة داخل مدن الشرق الأوسط • والواقع أن الكتابات العديدة التى تناولت هذه القضية تميل الى تأكيد المكانة المتدنية التى تحتلها المرأة فى مجتمعات الشرق الأوسط وعلى الأخص اذا ما قورنت بالمكانة العالمية التى تحتلها

---

(1) Abu-Lughod; «Rural Migration and Politics in Egypt»; in R. Antoun and I. Harik; Rural Politics and Social Change in the Middle East; Bloomington; Ind; 1972; pp. 315-334.

(2) F. Khuri; «Sectarian Loyalty Among Rural Migrants in Two Lebanese Suburbs : A Stage Between Family and National Allegiance»; in Ibid; pp. 116.

قرينتها فى المجتمعات الغربية • وفى معظم هذا الكتابات نجد تلميحات ــ صريحة أو ضمنية ــ للدور الذى تلعبه القيم الاسلامية فى هــذا المجال وعلى الأخص فيما يتعلق بتأكيد سلطة الرجل وحقه فى تعــدد الزوجات والطلاق • غير أن مجتمعات الشرق الأوسط قد شهدت تغيرات عميقة فى هذا المجال • فالمؤشرات الاحصائية المتعلقة بتعليم المرأة ، والتحاقها بالمهن المختلفة ، ونسب تعدد الزوجات ، تؤكد جميعها أن الصورة « التقليدية » للمرأة فى مجتمعات الشرق الأوسط لم تعد هى تلك الصورة « النمطية » التى ألفنا مطالعتها فى الكتابات السوسيولوجية الغربية • والواقع أننا لو حللنا مضمون كثير من القوانين المدنية فى معظم دول الشرق الأوســط ، وجدنا أن المرأة تحظى بمزايا (كحق الارث) لا تكاد تحظى ببعضها المرأة الغربية • وفضلا عن ذلك كله فان العنــاصر التقليــدية التى كانت تميز الأسرة العربية قد تعرضت للتغير الشديد خلال العقود الأخــيرة نتيجة لازدياد الاتصال بالعالم الخارجى ، ونمو الوعى الاجتماعى والسياسى ، وتغلغل العناصر العلمانية فى كافة وجوه الحياة الاجتماعية •

على أن ذلك لا يمنعنا من الاشارة الى بعض الخصوصيات الثقافية التى تتميز بها الاسرة الشرق أوسطية • فلقــد أوضــح دود Dodd أن المجتمعات الغربية تمنح الأخلاقيات العائلية (أو الشرف العائلى) أهمية فائقة[1] • ويدخل فى اطار هــذه الأخلاقيات عــددا كبــيرا من الأنماط السلوكية والمعرفية كارتفاع صوت المتحــدث والظهــور أمام الناس • ولا تتصل هذه الأخلاقيات بالنساء أو الاطفال فقط ، وانما تتعلق بالرجال • ومن بين القواعد التى تلقى احتراما كبــيرا أن تكون المهن الســياسية والعسكرية حكرا على الرجال ، وأن تكون الاعمال المنزلية وتربية الاطفال موقوفة على النساء[2] • وفى كل الاحوال فان بناء الأسرة فى مجتمعــات

(1) P. C. Dodd; «Family Honour and the Forces of Change in Arab Society»; International Journal of Middle East Studies; 4 (1973); pp. 40-54.

(2) C. A. O Van Nieuwenhuijze; Social Stratification and the Middle East; Leiden; 1965.

الشرق الأوسط يتيح للرجل ممارسة السلطة على زوجته ، ويتسق مع السلطة التى قد يمارسها الأخ على أخته • وقد يسمح المجتمع للمرأة بالاحتكاك بعدد محدود من الاقارب الذين يكونون محل ثقة كبيرة • ومن الطريف أن نشير هنا الى ان كمال أتاتورك ورضا بهلوى قد حرما ارتداء النساء للحجاب فى المدن التركية والايرانية ، مما أحدث ردود فعل عميقة سواء من جانب الرجال أو النساء • ومن الأمور ذات الدلالة البالغة أن الحجاب يبدو فى بعض المجتمعات ظاهرة حضرية أكثر منه ظاهرة ريفية[1] • ففى الحقول تعمل النساء سافرات ، بينما ترتدى بعض النساء الحضريات الحجاب عند خروجهن الى المدينة • ولقد أوضحت دراسة حديثة أن المكانة التقليدية للمرأة فى المجتمع الليبى تتحدد فى ضوء المعانى التى يمنحها الأفراد للخصائص البيولوجية لكل من الرجل والمرأة • فالذكورة ترتبط بالشجاعة والكبرياء والعدوان ، مما يدفع الأفراد الى ضرورة تخليد أنفسهم من خلال انجاب الذكور •

واذا كانت الهجرة الى المدن تؤدى الى اضعاف البناءات القرابية والعائلية الكبيرة ، الا أنها تسهم أيضا فى احداث تغييرات هامة على اتجاهات الرجال نحو النساء • فلقد أوضحت دراستان احداهما ليبية والأخرى تركية أن المهاجرين الذين أقاموا فى المدن قد تبنوا بعض الآراء والاتجاهات التقدمية فيما يتعلق بمكانة المرأة ، وأن الانتقال من اقتصاد الاعاشة الريفى الى اقتصاد النقد الحضرى قد خلع على المرأة قيمة اقتصادية لم تكن متاحة لها فى ظل الحياة القروية ، حتى أن عمل المرأة قد أصبح مطلبا اقتصاديا للأسرة اذا ما أرادت الاستمرار فى الحياة الحضرية • كذلك أوضحت دراسة مصرية أن الاتحاد النسائى المصرى يدين فى نشأته لجهود مجموعة من النساء القاهريات النشطات ، وأن تعليم المرأة فى مصر

---

(١) جدعون جوبرج ، الفروق الريفية ــ الحضرية ، دراسة فى علم الاجتماع الريفى ، ترجمة محمود عوده فى : محمد الجوهرى وآخرون ، ميادين علم الاجتماع ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٦ •

بوجه عام يعد من العوامل الأساسية المؤثرة على انخفاض معدلات الخصوبة وعلى الاخص فى المناطق الحضرية[1] • وفى مدينة الكويت يبدو تأثير التعليم على مكانة المرأة حاسما • فمن خلاله تمكنت المرأة الكويتية من العمل فى مهنة التدريس والمهن الأخرى (كالطب) التى قد تتيح فصلا بين الجنسين • أما نسبة العاملات الكويتيات فى المهن التجارية والصناعية فما تزال محدودة للغاية • وعلى الرغم من التغيرات الهامة التى شهدتها المدن العربية ، الا أن بعض الدارسين من أمثال دود Dodd يؤكدون استمرار قوة العناصر التقليدية داخل المدن • فتقارب معدلات الخصوبة فى كل من المناطق الريفية والحضرية هو أحد المؤشرات الدالة على قوة المعايير التقليدية داخل المدن المصرية واللبنانية • على أن وجهة نظر دود Dodd تقف عاجزة أمام الفروق الريفية ــ الحضرية التى تشهدها معظم دول الشرق الأوسط • وعلى الرغم من أن مدن هذه المنطقة تتشابه فى كثير من مظاهرها الايكولوجية والثقافية ، الا أننا نلمس فروقا ملحوظة بينها فيما يتعلق بمدى اختلاط الجنسين • فما تزال بعض المدن كالكويت تحرص على العزلة بين الجنسين فى كثير من المناسبات ، الا اذا استثنينا بعض المناسبات كالأفراح التى تقام فى الفنادق الكبرى • وهناك مدن أخرى كبيروت والقاهرة يعد اختلاط الجنسين فيها من الأمور المألوفة تماما • وبين هذين النمطين نجد مدينة كطهران تحرص فيها المرأة على التردد على الأماكن العامة وهى محجبة • ولعل الأحداث التى تعرضت لها ايران منذ وصول الخمينى الى السلطة ان تكون مؤشرا على أن الحجاب لا يتعارض مع الثورية ، وتلك قضية طالما أكدها فرانتز فانون Fanon فى معرض تحليله للثورة الجزائرية •

---

(1) J. Abu-Lughod; «Urbanization in Egypt»; Economic Development and Cultural Change; 13 (1965); pp. 313-343.

الفصل العاشر

البناء الطبقى الحضرى : معالم التطور

يصعب فهم البناء الطبقى الحضرى فى منطقة الشرق الأوسط دون التعرف على الظروف الاقتصادية والاجتماعية والثقافية (التاريخية والمعاصرة) التى مرت بها • وبقدر ما نلمس تشابها بين مدن هذه المنطقة فيما يتعلق ببناءاتها الطبقية ، بقدر ما نلمس اختلافا بينها • ففى معظم دول الشرق الأوسط ظلت الزراعة هى المصدر الأساسى للثروة وتراكم رؤوس الاموال • ولم تكن الحكومات لتستطيع بسط نفوذها دون التدخل فى هذه الثروة عن طريق فرض الضرائب واحتكار التجارة فى بعض المحاصيل الزراعية • على ان بدايات القرن العشرين قد شهدت نموا اقتصاديا ملحوظا فى هذه الدول • اذ بدأت مصادر الدخل والثروة تزداد تنوعا ، مما أفقد الزراعة قدرا من أهميتها المحورية • وبفضل مشروعات الاصلاح الزراعى التى تمت فى تركيا والعراق ومصر والجزائر ، بدأت الأرض الزراعية تفقد قدسيتها التاريخية كرمز من رموز المكانة الاجتماعية• والواقع أن ظهور الطبقة الوسطى (الحضرية والريفية) فى كثير من دول الشرق الأوسط يعد من أبرز وأهم التطورات الاجتماعية التى يمكن أن نسجلها خلال العقود القليلة الماضية • وعلى الرغم من أن التصنيع قد أسهم فى ظهور طبقة عمالية حضرية فى كل من ايران وتركيا ومصر ، الا أن هذه الطبقة العمالية ما تزال تفتقد كثيرا من العناصر الأساسية التى تميز قرينتها فى الدول الصناعية الرأسمالية أو الاشتراكية على السواء • غير أن ظهور النفط فى الدول الخليجية والمملكة السعودية والعراق وليبيا قد أسهم فى ظهور أنماط اقتصادية تختلف عن تلك التى ألفتها هذه الدول فى الماضى وتلك التى تعرفها الآن بقية دول الشرق الأوسط • الا أننا ــ مع ذلك ــ لا نذهب الى حد القول بأن تأثير النفط على هذه الدول كان واحدا بالضرورة • ففى البحرين لا نسمع الصدى القوى للنفط الذى يحدثه فى

أبو ظبى • واذا كانت دبى وأبو ظبى تشتركان فى بعض السمات الثقافية العربية كسباق الجمال (الهجن) والقنص بالصقور ، الا أن الأولى (دبى) تظل قلعة تجارية هامة ، بينما تحرص الثانية على التنمية الحضرية أو العمرانية • وعلى أية حال فلقد أدى النمو الحضرى فى معظم دول الشرق الأوسط الى ارتفاع كبير فى أسعار الأراضى التى تقع فى داخل المدن أو على حدودها ، مما أسهم فى ظهور جماعات طبقية حضرية جديدة لم تكن معروفة من قبل • كذلك فان نمو قطاع الخدمات قد أدى الى تشكيل جماعات أخرى تتخذ من المدن موطنا لها (كرجال البنوك والتأمين والعاملين فى شركات الطيران والسياحة ••• الخ) • اذ ان الخدمات فى منطقة الشرق الاوسط هى خدمات حضرية أكثر منها ريفية •

ولقد أوضح بيرى Berry أن البناء الاقتصادى الحضرى فى منطقة الشرق الأوسط يشبه ذلك الذى يوجد فى معظم الدول النامية[1] • ويتألف هذا البناء من ثلاثة قطاعات أساسية : يضم الأول العمال غير المهرة بما فى ذلك الباعة الجائلين ، وموزعى أوراق اليانصيب ، وعمال البناء المؤقتين ، والبغايا ، والقوادين ، والمتسولين ، واللصوص • وتتراوح نسبة عمال هذا القطاع فيما بين ١٠٪ و ٤٠٪ من مجموع القوة العاملة الحضرية • وتميل معظم الدول النامية الى عدم ادراج هؤلاء العمال ضمن قوة العمل فى المدن • كذلك أوضح مسح حديث نسبيا أجرى على مدينة القاهرة أن حوالى ٢٥٪ من المهاجرين اليها يعملون فى النشاطات الخاصة وعلى الأخص البيع المتجول أو بيع الرصيف على أفضل تقدير[2] • كما أشار مكى عزيز الى ان نسبة عالية من المهاجرين العراقيين الريفيين الى بغداد يعملون فى أعمال البناء والتشييد والمهن الهامشية كتنظيف الشوارع ،

---

(1) B. J. L. Berry; City Size Distributions and Economic Development; Department of Geography Research; Paper No. 2; Chicago; 1961.

(2) K. K; Petersen; «Villagers in Cairo : Hypotheses Versus Data»; American Journal of Sociology; 77; 1971; pp. 560-573.

وحمل البضائع على الاكتاف ، وتوصيل السلع من مكان لآخر[١] . وتشتد المنافسة بين هؤلاء العمال وتضعف قوتهم التفاوضية داخل سوق العمل ، مما يدفعهم الى قبول الأجور التى لا تقيم الأود الا بالكاد . وتشير الشواهد العابرة التى يمكن أن نستلخصها من واقع مدن الشرق الأوسط الى ان أى نمو اقتصادى حضرى يؤدى تلقائيا الى زيادة أعداد المهاجرين الى المدن . أما القطاع الثانى فيضم العاملين فى المشروعات التجارية الصغيرة والصناعات الحرفية اليدوية التى تستند الى اعتبارات عائلية أو قبلية أو طائفية . والواقع أن انتاج هذا القطاع متنوع الى حد كبير . فهو يبدأ من انتاج السلع البسيطة التى تطرح فى أسواق الفقراء حتى انتاج السلع الكمالية . وربما تعد أسواق السجاد (البازار) فى المدن الايرانية أفضل مثال على ذلك[٢] . اذ يحتاج العامل لعدة سنوات متتالية من العمل المتواصل حتى ينتج سجادة راقية . أما القطاع الثالث والأخير فيضم العاملين فى المشروعات الصناعية والتجارية التى تستند الى الاستخدام المكثف لرؤوس الأموال فضلا عن العاملين فى المؤسسات الحكومية والمهن الفنية العليا (كالطب والمحاماه والهندسة والتدريس الجامعى) . ويتميز القطاع الأخير بضخامة حجم استثماراته ، وارتفاع انتاجيته ، واعتماده على تكنولوجيا متطورة نسبيا . ويمكننا أن نجد تعبيرا واقعيا عن هذه القطاعات الثلاث وأوزانها النسبية داخل الاقتصاد الحضرى اذا ما ألقينا نظرة على الاحصاءات الرسمية للحالة المهنية والنشاط الاقتصادى فى دول الشرق الأوسط بوجه عام . فتتقلص النشاطات التقليدية (القطاع الثانى على وجه الخصوص) قد يعنى نمو النشاطات الحديثة (القطاع الثالث) .

---

(1) V. F. Costello; Urbanization in the Middle East; Cambridge University Press; London; 1977; p. 70.

(2) V. F. Costello; Kashan : A City and Region of Iran; London; 1976.

وفى تحليل جيد للبروليتاريا الحضرية فى الدول النامية بوجه عام ، أوضح محمد الجوهرى أن العمال الصناعيين ــ شأنهم شأن المثقفين ــ ظاهرة حضرية ، بل تقتصر فى الغالب على المدن الكبرى دون سواها . وتنتمى الغالبية الغالبة من هؤلاء العمال الى أصول ريفية حيث يتمكنون من خلال اقامتهم الحضرية تبنى تصورات وأفكار عامة فى محاولة للتكيف مع متطلبات العمل الصناعى[1] . ومن هنا يمكن أن نفهم موقف هؤلاء العمال من النقابات الصناعية وما تحدثه من نشر قيم ومبادىء عامة . على أننا لا نستطيع منح النقابات الصناعية تأثيرا أكبر من ذلك . اذ أن جانبا كبيرا من البروليتاريا الحضرية فى الدول النامية لا ينتمى الى أية تنظيمات نقابية أو عمالية . وربما كانت الأهمية الحقيقية التى تتمتع بها النقابات فى الدول النامية تعود الى ارتباطها بمشروعات التصنيع التى أنجزت بعد نيل الاستقلال السياسى . على أن كثيرا من النقابات العمالية فى الدول النامية ما تزال بعيدة عن أدوارها السياسية والاجتماعية الحقيقية . فالجهود التى تبذلها من أجل رفع مستوى مهارة العمال وتكيف المهاجرين الجدد مع الحياة الحضرية مانزال محدودة للغاية[2] . وربما كانت أهم وظائف هذه النقابات كونها أحد وسائل الحراك الاجتماعى للقيادات العمالية .

وعند دراسة البناء الاقتصادى الحضرى فى مدن الشرق الأوسط ، تبدو أمامنا مشكلات احصائية عديدة . من ذلك ــ مثلا ــ صعوبة التفرقة بين المستقلين والتابعين اقتصاديا . ففى النشاطات التقليدية (كالحرف اليدوية وصناعة السجاد) التى تتم على أساس عائلى تذوب الفروق بين

---

(١) محمد الجوهرى ، البناء الطبقى فى الدول النامية ، فى : السيد الحسينى وآخرون ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، الباب الثانى .

(٢) انظر لمزيد من التفصيل : عبد المنعم الغزالى ، تاريخ الحركة النقابية المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، وكذلك أحمد ابو زيد ، « الحركة النقابية والتحرر الافريقى » ، مجلة السياسة الدولية ، العدد الرابع ، ١٩٦٦ ، ص ص ٧٤ ــ ٨٥ .

كل من النشاط الاقتصادى الخاص والأسرى • وطالما أن كل أفراد الأسرة يشاركون فى عملية انتاجية واحدة فان التعرف على كثير من العناصر الاقتصادية يصبح أمرا مستحيلا • كذلك فان معدلات النشاط الاقتصادى فى مدن الشرق الأوسط تختلف باختلاف الجنس والنوع ، كما أنها تتأثر بالبناء السكانى بوجه عام • ففى العراق نجد البيانات الاحصائية تشير الى أن قوة العمل تصل الى ٤٠٪ من مجموع السكان ، فى مقابل ٣٣٪ فى ليبيا ، و ٢٤٪ فى سوريا • وفى دول الخليج العربية فاقت نسبة قوة العمل كل تصور • فطبقا لبيانات سنة ١٩٧٥ وصلت هذه النسبة فى الكويت ٦٩ر٧٪ ، والبحرين ٣٩ر٦٪ ؛ وقطر ٨١ر١٪ ؛ والامارات العربية ٨٤ر٨٪ • ومن الطبيعى أن تكون الهجرة الشابة الى هذه الدول — والتى اتسع نطاقها خلال السنوات الأخيرة — سببا أساسيا فى ظهور هذا النمط من العمالة الشابة[1] • وباستثناء دول الخليج العربية فان النمط السكانى العام لدول الشرق الأوسط يؤكد اتساع قاع هرم الأعمار ، مما يعنى ارتفاع نسبة التابعين اقتصاديا ، فضلا عن أن المرأة لم تدخل بكل قواها وامكانياتها السوق المهنى • فلا تزال المرأة فى معظم هذه الدول تفضل العمل فى بعض المهن كالتدريس والتمريض • وفضلا عن ذلك لوحظ أن البيانات السكانية التى تتناول دول الشرق الاوسط تميل الى تقديم معدلات بطاله منخفضة ، كما تتجاهل تماما ما يمكن أن نطلق عليه « البطالة المقنعة » التى تعنى الالتحاق بالعمل دون وصول الانتاجية الى حدها الأدنى • ولقد أوضحت دراسة عن البطالة فى حى حضرى يقع جنوب مدينة طهران أن المبحوثين العاطلين قد عبروا عن يأسهم من الحصول على عمل بسبب قلة الفرص المتاحة وعدم وجود هيئات أو مؤسسات تزودهم بالبيانات الضرورية لذلك[2] • وفى غياب نظام متطور للتأمين على

(1) ILO Document Wep 2-26 W; p. 30.

(2) W. L. Bartsch; «Unemployment in Less Developed Countries · A Case Study of a Poor District of Tehran»; International Development Review; 13; 1971; pp. 19-22.

البطالة (كما هو معروف فى الدول الغربية الصناعية) تصبح البطالة فى مدن الشرق الأوسط أمرا مروعا •

وباستثناءات قليلة تبدو لنا وجوه شبه عديدة بين البناء المهنى فى معظم مدن الشرق الأوسط وعلى الأخص الكبيرة الحجم منها • ومهما قيل عن ظروف العمل السيئة القاسية التى يواجهها العمال الحضريون فى هذه المدن ، فانها ما تزال أفضل بكثير من تلك التى يعمل فيها قرناؤهم الريفيون • ان ارتفاع أعداد العاملين فى المهن « الهامشية » التى لا ترتبط ارتباطا وثيقا بالبناء الاقتصادى الحديث ، لهو أفضل دليل على « الازدواجية » التى يعانى منها الاقتصاد الحضرى فى مدن الشرق الأوسط بوجه عام • ولقد أوضحت فى موضع آخر ، المشكلات التى تخلقها هذه « الازدواجية » حينما تتعايش الاساليب الانتاجية الحديثة مع الأساليب الانتاجية التقليدية[١] • والواقع أن الفارق بينهما هو نفس الفارق الذى يفصل بين المتخصص الفنى والبائع المتجول • ومن هنا يمكننا فهم المعنى الشامل الذى يشير اليه مفهوم « الازدواجية » • فهو يتضمن معانى اقتصادية واجتماعية وثقافية • وعلى الرغم من ظروف العمل غير المستقر التى يتعرض لها قطاع كبير من عمال مدن الشرق الأوسط ، الا أن الحكومات تقف فى كثير من الأحيان عاجزة عن اتخاذ حلول حاسمة • ففى تركيا (ومصر الى حد ما) يضطر أصحاب المشروعات الصغيرة الى فصل العمال بعد التحاقهم بالعمل بفترة قصيرة فى محاولة للهروب من التأمينات الاجتماعية على العمال[٢] • ومن خلال هذه النقطة يمكن تفسير استمرار انتقال العمال المهاجرين من عمل لآخر برغم استمرار الحصول على أجور منخفضة[٣] •

---

(١) السيد الحسينى ، العالم الثالث : تنمية أم تبعية ؟ فى : السيد الحسينى وآخرون ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، المرجع السابق ، الفصل الثانى •

(2) W. L. Bartsch; «Unemployment in Less....» op. cit; p. 20.

(3) B. J. L. Berry; City Size Distributions and Economic Development op. cit.

واذا ما حاولنا تحديد معالم البناء الطبقى الحضرى فى دول الشرق الأوسط ، واجهنا صعوبات عديدة • ففى كثير من الأحيان تختلط الحدود بين الجماعات الاجتماعية المختلفة وتتنوع معايير المكانات الاجتماعية بحيث يصعب تحديد الخطوط الطبقية الأساسية • فالاعتماد على الملكية والدخل قد لا يكفى لتحديد الجماعات الطبقية • اذ قد تتدخل الاعتبارات الدينية والأخلاقية والقبلية والثقافية لتؤدى الى تكوينات طبقية لا تتسق مع المؤشرات الكمية الاحصائية التى يعتمد عليها المولعون بالاحصاءات من علماء الاجتماع • واذا كان لنا أن نتخذ موقفا اجرائيا ، فاننا قد نعتمد على المهنة كوسيلة لتحديد البناء الطبقى فى مدن الشرق الأوسط • وقد يبرر ذلك ، الأهمية الخاصة التى تلعبها المهنة بوصفها أهم عناصر البناء الطبقى[1] • فهى تعكس — الى حد كبير — مستوى التعليم ، كما أنها ترتبط بالدخل ارتباطا ملحوظا ، فضلا عن أنها تعد من أفضل المعايير الطبقية التى تكشف عن الجوانب الثقافية للطبقات المختلفة • ولقد سبق أن أوضحت فى موضع سابق أن المجتمعات الحضرية التقليدية فى الشرق الأوسط كانت تنقسم الى طبقتين أساسيتين : الأولى هى الطبقة العليا التى تضم الحكام وكبار ملاك الارض والبرجوازية التجارية ورجال الدين الأثرياء • أما الطبقة الثانية فكانت الطبقة الدنيا التى تكاد تضم بقية سكان المدن • على أن هذا البناء الطبقى الحضرى التقليدى قد تعرض لتغيرات شديدة خلال القرن الحالى نظرا للتحولات الديموجرافية والاجتماعية والاقتصادية التى طرأت على دول الشرق الأوسط بوجه عام ومدنها بوجه خاص • ولقد أشار دانيل ليرنر Lerner الى أن عملية التحول من المجتمع التقليدى (ما قبل الصناعة) الى المجتمع الحديث (الصناعى) فى منطقة الشرق الأوسط انما هى عملية تاريخية فريدة تحكمها اعتبارات ثقافية[2] • وبغض النظر عن التصنيفات السيكولوجية الجامدة

---

(١) السيد الحسينى ، عرض وجيز لأهم اسهامات لويد وارنر فى دراسة التدرج الاجتماعى ، المجلة الاجتماعية القومية ، مايو ١٩٦٦ ، ص ص ٩١—١١١ .

(2) D. Lerner; The Passing of Traditional Society; Modernizing the Middle East: London; 1964.

التى طرحها ليرنر ، الا أن كثيرا من أفكاره قد تصلح كمحاولة لرصد التغيرات التى طرأت على البناء الطبقى فى هذه المنطقه من العالم .

ولقد أوضح سنيبيرج Snaiberg فى دراسة له على مدينة أنقرة أن التناقض بين البناء الاجتماعى لكل من المدينة والقرية قد ازداد حدة نتيجة للتصنيع . فخلال فترة التحول من المجتمع التقليدى (ما قبل الصناعة) الى المجتمع الحديث (الصناعى) طرأت تغيرات هامة على معايير التدرج الطبقى . فقد بدأ الانجاز أو الأداء يعد أساسا هاما من أسس التقويم الطبقى ، كما بدأت الخصائص الشخصية (الانتماء القبلى أو العائلى أو الثروة الموروثة ... الخ) تفقد أهميتها كأحد المعايير الطبقيه . كذلك أشار سنيبيرج الى أن الهيئات الطوعية قد ازدادت بشكل ملحوظ خلال هذه الفترة الانتقالية ، وأنها كانت تلعب دورا « تحديثيا » هاما بسبب المبادىء والقيم العامة التى تتبناها . على أن أهم ما يميز هذه المرحلة الانتقالية ظهور الطبقة الوسطى الحضرية ، برغم زيادة حجم التباين الطبقى بين كل من القرية والمدينة من ناحية ، وداخل المدينة ذاتها من ناحية أخرى[1] . أما جاكوبس Jacobs فقد أجرى دراسة على ايران بهدف التعرف على طبيعة البناء الطبقى . والطريف فى هذه الدراسة أن الباحث لم يعتمد على المعايير الطبقية التقليدية (كالثروة والدخل والمهنة ... الخ) التى طالما استخدمها علماء الاجتماع فى تحليلاتهم النظرية وبحوثهم الواقعية . وبدلا من ذلك استخدام الباحث معيار الاحساس بالأمان . فالطبقة الايرانية العليا تمتلك خصائص شخصية هامة كالشجاعة والقدرة على القيادة ، لذلك فأفرادها ينتمون الى أغنى العائلات وأكثرها عراقة ، تلك التى ظلت لفترة طويلة مرتبطة بالطبقة الحاكمة فى ايران . أما بقية أفراد المجتمع الايرانى فيفتقدون الاحساس بالأمان خاصة اذا ما تعلق ذلك بالسلطة السياسية . ومعنى ذلك أن

(1) A. Snaiberg; «Rural-Urban Residence and Modernism : A Study in Ankara Province; Turkey; Demography; 7 (1970); pp. 71-80.

الثروة لا تستطيع أن تعوضهم عن الاحساس بالأمان الذى هو أحد دعائم الانتماء الطبقى[١] • وبرغم الطرافة التى تنطوى عليها هذه الدراسة ؛ الا أنها لا تسهم بالكثير فى الدراسة السوسيولوجية للبناء الطبقى فى واحدة من أهم دول الشرق الأوسط • وربما كانت الدلالة الهامة التى كشفت عنها نتائج هذه الدراسة هى رفض المعايير التقليدية الغربية فى دراسة البناء الطبقى فى الدول النامية بوجه عام • ويمكننا أن نجد تأييدا لهذه القضية فى تحليل هالبيرن Halpern للبناء الطبقى فى مصر • فلقد ذهب الى أن التحكم فى القرارات السياسية وتوجيه التغير الاجتماعى يرتبطان بالبناء الطبقى المصرى أكثر من ارتباط الملكية به • فتشكل الطبقة الاجتماعية هو علامة على وجود دور عام مشترك متصل بالتغير الاجتماعى • وينتهى هالبيرن من ذلك الى أن الطبقة الوسطى المصرية الجديدة تتحدد فى ضوء الأفكار والأفعال المتصلة بعملية التحديث[٢] •

وفى تحليل شامل للتدرج الاجتماعى فى مجتمعات الشرق الأوسط ؛ أوضح عالم الاجتماع الهولندى فان نيوهوزه Van Nieuwenhuijze أن من الصعب فهم بناءات هذه المجتمعات دون التعرف على جذورها الحضارية التاريخية • اذ من العبث تطبيق مفهوم التدرج الاجتماعى المستخدم فى علم الاجتماع الغربى عند دراسة هذه المجتمعات الشرقية • لقد لعب الاسلام دورا هاما فى تطور هذه المجتمعات وتشكيل بناءاتها الطبقية ، وهو دور يختلف تمام الاختلاف عن ذلك الذى أدته المسيحية بالنسبة للمجتمعات الغربية • وبفضل الاسلام بدت مجتمعات الشرق الأوسط عبر تاريخها وهى تتمتع بقدر كبير من الاستقرار برغم التباينات الاثنولوجية واللغوية والثقافية[٣] • وعلى الرغم من أن التطورات

---

(1) N. Jacobs; The Sociology of Development : Iran as an Asian Case Study; New York; 1966.

(2) M. Halpern; «Egypt and the New Middle Class»; Comparative Studies in Society; and History (1967); pp. 97-108.

(3) Van Nieuwenhuijze; Social Stratification and the Middle East; Leiden; 1965.

التاريخية التى مرت بها هذه المجتمعات الاسلامية قد أدت الى ظهور بناءات طبقية تقليدية ، الا أن الاسلام — فى جوهره — هو أفضل وأكمل دعوة للمساواة والعدالة الاجتماعية . وتوضح لنا هذه المناقشة كيف أن تحديد معالم البناء الطبقى فى مجتمعات الشرق الأوسط ينطوى على صعوبات محققة مصدرها عدم قدرة المفاهيم الطبقية الغربية على تفسير الواقع الطبقى فى هذه المجتمعات من ناحية ، وندرة الدراسات الواقعية حول هذا الموضوع من ناحية أخرى[1] . ويبدو لنا أن أفضل وسيلة متاحة للتغلب على هذه الصعوبات تتمثل فى البدء باستعراض الدراسات الواقعية المتاحة عن البناء الطبقى فى مدن الشرق الأوسط . ولتنظيم المناقشة نبدأ بتصنيف الجماعات الطبقية الحضرية الأساسية الى ثلاث : عليا ، ووسطى ، ودنيا ، على أن نتعرف على الخصائص الثقافية التى تميز كلا منها .

فاذا ما بدأنا بتناول الطبقة العليا فى مدن الشرق الأوسط ، لاحظنا ارتباطها الوثيق بمصادر الثروة والسلطة السياسية . وتشكل هذه الطبقة صفوة قليلة العدد تتحكم فى القرارات القومية الأساسية[2] . فخلال حكم شاه ايران المخلوع (محمد رضا بهلوى) كانت هذه الصفوة أو الطبقة تتشكل من حوالى ألف أسرة ايرانية تقيم فى قصورها الواقعة فى المدن الايرانية الأساسية . وفى السعودية تتألف هذه الطبقة من الأسرة الحاكمة وبعض الأسر الأخرى المتعاونة معها . وتميل هذه الطبقة الى

---

(١) قدم محمد الجوهرى اطارا نظريا لدراسة البناء الطبقى فى مصر . انظر : محمد الجوهرى « البناء الطبقى فى الدول النامية » فى : السيد الحسينى وآخرون ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، المرجع السابق . ولقد قام كاتب هذه السطور باختبار هذ الاطار النظرى ، انظر : السيد الحسينى ، الطبقة الاجتماعية والسلوك الانجابى ، مجلة دراسات سكانية ، عدد خاص ، ١٩٧٦ .

(2) Van Nieuwenhujze; Social Stratification and the Middle East; op. cit.

احتكار جانب كبير من مصادر الثروة والملكية • ويمكننا أن نضيف الى ذلك أصحاب المناصب الادارية الكبرى فى بعض دول الشرق الأوسط • ففى مصر وسوريا والعراق وليبيا والجزائر تكونت جماعات ادارية ذات نفوذ كبير ، حيث تتولى الاشراف على مشروعات التنمية الاقتصادية والاجتماعية • وفى تركيا ورثت الصفوة الادارية التقاليد السياسية العثمانية التى تؤكد اهمية المركزية ، بينما نجد فى الكويت وضعا مختلفا • فنتيجة للحرص الشديد على « تكويت » المناصب الادارية العليا حقق كثير من الكويتيين ذوى الكفاءات العادية حراكا اجتماعيا سريعا فى فترة قياسية [1] • وباستثناءات قليلة يمكن القول أن الارستقراطية الزراعية فى دول الشرق الأوسط لم تتكون الا خلال فترة الدولة العثمانية • وفى وقت لاحق بدأت هذه الارستقراطية تلعب دورا سياسيا هاما وعلى الأخص فى المؤسسات البرلمانية • ومن الصعب فى هذه الدول الفصل بين مصالح كبار التجار وملاك العقارات والمقاولين وأصحاب المشروعات الصناعية[2] • ففى لبنان ــ مثلا ــ نجد اتحادا بين غرفتى الصناعة والتجارة ، كما أن نفس الأشخاص قد يقومون بممارسة نشاطات صناعية وتجارية فى وقت واحد • وفى ايران لوحظ أن الثروة المتراكمة من الملكية الزراعية والصناعة الحرفية والتجارة قد توجه للاستثمار فى المشروعات الصناعية الحديثة •

وعلى الرغم من أن الصفوات السياسية والاقتصادية فى مجتمعات الشرق الأوسط تلعب أدواراً بالغة الاهمية على المستوى القومى ، وتقيم بالتالى فى المدن الرئيسية الكبرى ، الا أننا نستطيع القول بأن المدن الاقليمية الصغرى لها صفواتها السياسية والاقتصادية المحلية • ولقد أوضحت احدى الدراسات التى أجريت على مدينة كرمان الايرانية أن

---

(1) G. Ffrench; A. Hill; Kuwait : Urban and Medical Ecology; Heidelberg; 1971.

(2) G. Baer; Population and Society in the Arab East; London; 1964; pp. 207-210.

صفوة هذه المدينة الاقليمية تتألف من كبار علماء الدين المحليين ، وذوى الملكيات الزراعية الكبيرة ، وأصحاب المحلات التجارية الرئيسية ، فضلا عن المثقفين ذوى الميول الغربية[1] . كذلك أوضحت هذه الدراسة أن هناك عناصر مشتركة توحد بين أفراد الطبقة العليا فى هذه المدينة لعل أهمها : الثروة ، والسلطة السياسية ، والتأثير فى مجرى الحياة المحلية . ويمكننا أن نضيف الى ذلك ممثلى السلطة المركزية كالمحافظ ، ومدير الأمن ، والمديرين المتحكمين فى النشاطات الاقتصادية والاجتماعية المحلية . والواقع أننا لا نملك الا القليل من المعلومات الدقيقة عن الحياة الاجتماعية للصفوات فى مدن الشرق الأوسط ، خاصة وأن أفراد هذه الصفوات يميلون الى الفصل بين شئونهم الخاصة وحياتهم العامة . ومع ذلك فان هناك ملاحظات عامة يمكن تسجيلها فى هذا المجال . من ذلك أن أفراد هذه الصفوات يتمكنون من الاقامة فى مساكن فخمة تقع فى أرقى أحياء المدن . وغالبا ما تكون هذه المساكن فى شكل فيلات أو قصور صغيرة مستقلة تحيطها جدران من كل جانب . ويستطيع أفراد هذه الصفوات الحصول على ما يلزمهم من طباخين وخدم ، ذلك أنهم ينظرون الى الأعمال المنزلية (كالطهى والكنس وغسل الاطباق وزراعة حديقة المنزل) باحتقار شديد . وفى بعض الأحيان قد تضطر بعض سيدات الطبقة العليا الى الانضمام للجمعيات الخيرية أو ممارسة بعض العادات السيئة كلعب القمار فى المنازل . وقد يكون من المفيد هنا اقتباس نص من رواية تتناول الحياة الاجتماعية لنساء الطبقة العليا العراقية . يقول الكاتب على لسان امرأة عراقية : « تلقى السيدة العراقية الثرية كل يومين طوفانا من السيدات العراقيات الزائرات . ومنذ الصباح حتى منتصف النهار يبدأن فى لعب الورق وتناول الشاى وعصير الليمون ، ثم يبدأن ثرثرة محمومة تغطى كافة الموضوعات التى تتعلق بأحوالهن وأحوال جيرانهن . وتنتهى هذه الثرثرة بأحاديث لا تخلو من مبالغة تتناول حياتهن الجنسية وانفاقهن على السلع الكمالية

(1) P. W. English; City and Village in Iran : Settlement and Economy in the Kirman Basin; London; 1966.

وكل ما يخطر على بال من فضائح الناس •وما أن ينفض هذا الجمع من النساء حتى تبدو قاعة المجلوس وكأنها أطلالا • فهنا وهناك تبـدو أطباق وأوانى مليئة بفضلات المسليات والمشهيات »[١] •

أما الطبقة الوسطى الحضرية فى مدن الشرق الأوسط فتضم قطاعا كبيرا من ذوى المهن الفنية العليا (كالأطباء والمهندسين وأساتذة الجامعات) وضباط الجيش والمديرين والمنفذين وصغار التجار • ومن الطبيعى أن يختلف حجم هذه الطبقة باختلاف أحجام المـدن ومسـتوى التطـور الاقتصادى والاجتماعى فى دول الشرق الأوسط بوجه عام • وعلى الرغم من أننا لا نملك بيانات صادقة عن حجم هـذه الطبقة فى مـدن الشرق الأوسط ، الا أننا نتوقع أن تكون محدودة الحجم اذا ما قورنت بنظيراتها فى المدن الغربية • وخلال مراحل تاريخية مختلفة لعبت المؤسسات الدينية الاسلامية دورا حضريا بارزا • ففى عصرها الذهبى كان علمـاء الـدين والوعاظ وأئمة المساجد يحتلون مكانة اجتماعية متميزة[٢] • بيد أن هذه المكانة الاجتماعية قد تعرضت للانخفاض نتيجة لتغلغل الروح العلمانية فى كثير من دول الشرق الأوسط • ففى تركيا أصبحت القـواعد الاخلاقية ـ بدلا من المبادىء الدينية ـ هى الموجه الأساسى للعمليات التجارية • وعلى الرغم من أن الشريعة الاسلامية ما تزال مصـدر التشريع لقوانين الأحوال الشخصية والارث ، الا أن الوضع الاقتصـادى لرجال الـدين الاسلامى قد تدهور بسبب حرمانهم من أنصبتهم التقليدية فى الضرائب الزراعية وتقلص بعض المصادر كالأوقاف[٣] ، فضلا عن انتشار التعليم العلمانى فى المدن الاسلامية الذى قد يتيح فرصا واسعة للحصول على مهن أعلى هيبة وأكثر دخلا • والمحقق أن المهن الحضرية العلمانية (غير الدينية) قد حققت أقصى درجات نموها فى مدن الشرق الأوسـط خـلال القـرن

---

(1) J. Jabra; Hunters in a Narrow Street; London; 1960.

(2) A. Hourani; «The Islamic City in the Light of Recent Research»; in A. Hourani; A; S. Stern (eds); The Islamic City; London; 1970.

(3) G. Baer; Population and Society in the Arab East; London; 1964.

العشرين • فمعظم الوظائف الادارية والفنية والسياسية أصبحت متاحة بالدرجة الأولى للذين يتلقون تعليما علمانيا عاليا • ففى مصر نما الجهاز الادارى نمـــوا هائلا خلال الأربعينيات والخمسينيات من هذا القرن • وفيما بين سنتى ١٩٤٠ و ١٩٥٤ زاد عدد الوظائف الحكومية بنسبة ٦١٪ ، حيث كانت المدن المصرية الكبرى هى المسرح الأساسى لهذه الزيادة ، وكان القطاع الحكومى هو أكبر مستقبل لها[1] • وربما كانت مهنة التدريس هى أكبر المهن التى تعرضت للنمو السريع فى مصر • كذلك فلقد ازداد الاقبال على كليات الآداب والحقـــوق والتجارة خـــلال عقـــدى الأربعينيـــات والخمسينيات • ومن الطبيعى أن يتجه خريجو هذه الكليات الى الوظائف الادارية الحكومية • وخلال عقد الستينيات بدأ الاهتمام بالتعليم الفنى أو التكنولوجى ، كما بدأت دراسات العلوم البحتة والرياضيات والزراعة تحقق ازدهارا ملموسا • وربما كان الطب هو أقدم المهن الفنية العليا التى حققت مكانة متميزة فى مصر خلال فترة مبكرة نسبيا من هذا القرن [2] •

أما المدن التى شهدت تطورا صناعيا حديثا فقد عرفت طبقة وسطى تتألف ـــ فى معظمها ـــ من الفنيين الذين تلقوا تعليمهم فى الدول الغربية • وأفضل مثال على ذلك مدن البترول التى تكاد تكون قلاعا صناعية تضم الخبـــراء المتخصصين فى استخراج النفط ومعالجته • ففى مدينة عبدان بايران نجد هؤلاء الفنيين يعيشون فى شـــبه عزلة جغرافية عن العالم الخارجى ، اذ تخصص لهم ضاحية متكاملة يجدون فيها كل ما يطمحون اليه من وسائل الترفيه المـــادية والفكرية والجسمية[3] • وفى الكويت وأبو ظبى وقطر وليبيا والعراق ، أقامت شركات البترول ـــ بالتعاون مع الحكومات الوطنية ـــ مدنا بترولية تتكامل فيها كل مقومات الحياة الحديثة حتى لتبدو الحضارة

---

(1) Ibid; pp. 217-218.

(2) Joseph S. Szyliowicz; Education and Modernization in the Middle East; Cornell Univ. Press; 1973; pp. 179-232.

(3) N. Jacobs; The Sociology of Development : Iran as an Asian Case Study; New York; 1966.

الغربية وقد زرعت وسط الصحراء • ومن الطبيعى أن تؤثر هذه « الجزر » الغربية على الحياة الحضرية فى مدن الشرق الأوسط • فكثير من أبناء هذه المدن يعملون فى شركات البترول ، حيث تتاح لهم فرصة الاحتكاك بالخبراء الغربيين وتبنى أساليب حياة غربية ما تلبث أن تنتقل الى قطاعات وطنية أوسع • وعلى الرغم من أن هؤلاء الخبراء الأوربيين يعيشون فى شبه عزلة جغرافية ، الا أن تأثيرهم الثقافى يبدو هاما • وأحد مظاهر هذا التأثير تغير النظرة الى أنساق التدرج الاجتماعى فى مجتمعات الشرق الأوسط ، تلك الأنساق التى ظلت لفترة طويلة تعتمد اعتمادا أساسيا على الدين والقرابة • وعلى أية حال فان هذه النقطة ما تزال بحاجة الى مزيد من الدراسات الواقعية قبل الوصول الى أية تعميمات ذات صدق عام •

ويبدو أن الطبقة الوسطى الحضرية فى دول الشرق الأوسط تحافظ على بعض خصائصها المشتركة برغم اختلاف ظروف البيئة الحضرية والنمط الاقتصادى • ففى دراسة أجراها سمير خلف وكونستاد Constad على حى الحمرا ببيروت ، اتضح أن هذا الحى قد نما حول الجامعة الأمريكية التى تأسست فى سنة ١٨٦٦ • ومنذ انشاء هذه الجامعة وهى تجذب اليها الأساتذة والباحثين ، حتى بدا الحى بعد قرن تقريبا وكأنه مؤلف من قطاع متميز من الطبقة الوسطى[1] • ولقد أوضحت هذه الدراسة أن البناء المهنى لحى الحمرا يتميز ببعض الملامح المميزة حيث يتألف من العاملين فى المهن الكتابية (٢٣٪) والمنفذين (١٥٪) ورجال الاعمال (٢٦٪) • أما النسبة المئوية المتبقية (٣٦٪) فتمثل أصحاب المهن الفنية العليا بما فى ذلك أساتذة الجامعة والباحثين • واذا كان لنا أن نستنتج شيئا من هذه النسب المئوية فهو ارتفاع نسبة الطبقة الوسطى فى هذا الحى ، وهو ارتفاع يعد انعكاسا لسيطرة الطابع التجارى على لبنان بوجه عام • وعلى الرغم من ان هذه الدراسة قد أكدت أن الطبقة الوسطى

---

(1) S. Khalaf and P. Konstad; Hamra of Beirut : A Case of Rapid Urbanization; Leiden; 1973.

الحضرية فى لبنان أصغر حجما من نظيرتها فى أمريكا الشمالية ، الا أنها قد أوضحت أيضا أن أفراد هذه الطبقة هم حملة لواء الثقافة والفكر ، ومصدر التغير الاجتماعى المستمر • وفضلا عن ذلك أكدت الدراسة ارتفاع معدلات الحراك الاجتماعى داخل هذا الحى • اذ أن أكثر من نصف الأبناء قد شغلوا مهناً أعلى مكانة من تلك التى شغلها أو يشغلها آباؤهم •

وعلى الرغم من أن الطبقة الوسطى فى مدينة حديثة كبيروت تشبه فى بعض الوجوه نظيرتها فى مدينة تقليدية ككرمان ، الا أن مكوناتهما تختلف اختلافا واضحا • ففى كرمان نجد الطبقة الوسطى تضم الجماعات الحضرية التقليدية وعددا قليلا من المتعلمين الذين يحملون اتجاهات معادية للثقافة التقليدية[1] • ويبدو ان الطبقة الوسطى فى هذه المدينة تكتسب معالمها المميزة فى ضوء « موقفها من التحديث » اذا ما استخدمنا تعبير هالبيرن Halpern • اذ أن كثيرا من المشروعات الحديثة التى شهدتها المدينة كانت نتيجة للضغط المستمر الذى مارسه هؤلاء المتعلمون • وعلى الرغم من أن التعليم يعد أحد خصائص الطبقة الوسطى فى هذه المدينة ، الا أن الغالبية العظمى من أفراد هذه الطبقة تتألف من صغار تجار السوق (البازار) وكبار الحرفيين والصناع • ذلك أن الحياة الاقتصادية والدينية فى المدينة تكاد تدور حول هذه الجماعات المهنية التجارية والصناعية • وتدفعنا هذه النقطة الى تناول الدور الذى ما تزال تلعبه الطوائف الحرفية فى المدن الايرانية من خلال التحكم فى الأسواق التجارية وممارسة كثير من النشاطات الدينية • ففى طهران وكرمان ويزد وكاشان وقم ، تنظم هذه الطوائف خلال شهر محرم حلقات ندب تصل الى الأذى البدنى حزنا وألما على مقتل الامام الحسين بن على • على أننى أعتقد أن الدور السياسى الذى تلعبه هذه الطوائف الايرانية لا يقل خطورة وأهمية عن أدوارها التجارية والاقتصادية • فمن خلال التحالف الوثيق بين هذه الطوائف

(1) P. W. English; City and Village in Iran : Settlement and Economy in the Kirman Basin; op. cit.

الحرفية ورجال الدين ، تمكن آية الله الخمينى ــ وبشكل درامى سريع ــ من الانقضاض على النظام الشاهنشاهى بعد تفريغه من مضامينه السياسية والاجتماعية • والواقع أن الموقف الايرانى فى هذا المجـال لا يخلو من تفرد • وبدون الدخول فى تفاصيل البناء السياسى ــ الدينى ــ التجارى فى ايران ، فان الاحداث الأخيرة قد برهنت على أن القطاعات الحضرية التى بدت فى نظر كثير من المثقفين معقل الرجعية (رجال الدين والتجار) ، ما لبثت أن تحولت الى قوة ثورية هائلة •

وفى كثير من مدن الشرق الأوسط تبدو الطبقة الوسطى وكأنها أكثر الطبقات حرصا على تدعيم مكاناتها الاجتماعية وتحسين ظروفها المعيشية • وغالبا ما يتم ذلك من خلال الحصول على الثروة أو المؤهلات التعليمية العليا • وتشير بعض الدراسات الى أن التعليم والدخل هما أبرز المعايير الطبقية فى مدن الشرق الأوسط ، كما أن الحضريين ينظرون باحتقار الى الأعمال اليدوية • ولقد أشار جوليك Gulick الى أن كثـيرا من طـلاب الشرق الأوسط لا يرغبون فى العمـل خلال العطـلات الصيفية بسبب احتقارهم للعمل اليدوى ، وأن خادمات المنـازل تعد من رموز المـكانة الأسرية ، وأن صاحب أى محل تجارى يحرص على تشغيل بعض الاطفال لتوصيل السلع الى المشترى الذى يظل قابعا فى سـيارته وسـط طريق مزدحم[1] • كذلك أوضح مورو بيرجر Berger فى دراسته عن البيروقراطية المصرية أن عدد السعاه الواقفين أمام مكاتب كبار الموظفين هو أحد رموز المكانة الاجتماعية[2] • وباستثناء المملكة العربية السعودية ودول الخليج العربية ، تميل النساء فى مدن الشرق الأوسـط الى ارتداء ملابس ذات طراز غربى ، كما أن الانفاق المظهرى الاستهلاكى قـد يعد ــ فى نظـر الاسرة رمزا من رموز المكانة العليا • وليس من الصعب على أى زائر لمدينة

---

(1) J. Gulick; Tripoli : A Modern Arab City; Cambridge; Mass; 1967.

(2) M. Berger; Bureaucracy and Society in Modern Egypt; Princeton University Press; 1956.

شرق أوسطية تقليدية كالقاهرة أن يجد آلاف المقاهى وقد اكتظت بزبائنها الذين يجدون متعة حقيقية فى تأمل سلوك المارة • وفى مدينة كأصفهان قد نجد الاسرة بأكملها تخرج فى أمسيات الصيف تتأمل ما تحتويه المحلات التجارية من سلع وبضائع • ومن الطريف أن نجد المرأة فى اصفهان ترتدى « الشادور » فوق ملابس غربية حديثة • والواقع أن مدن الشرق الأوسط لا تخلو من تناقضات • فعلى الرغم من ملامحها الايكولوجية الاقتصادية التقليدية ، الا أن مساكن الطبقة الوسطى تتخذ طابعا غربيا الى حد كبير • فالاسرة النووية الحضرية قد تعيش فى شقة مؤلفة من حجرتين مزودة بأثاث ملائم لا يخلو من نكهة غربية ومعدات كهربائية تنم عن اتصال دائم بالمقومات المادية للحياة الاسرية الاوربية • ومن الملاحظات التى يمكن تسجيلها هنا أن بعض سكان المدن الصغرى فى منطقة الشرق الاوسط قد يجدون صعوبة فى ممارسة بعض الانماط السلوكية غير المألوفة كتعاطى الخمور والبغاء ، مما قد يدفعهم الى زيارة المدن الكبرى أو العواصم ، حيث يستطيع الانسان أن يفعل ما يشاء دون رقيب • وينطبق ذلك — ولكن بشكل آخر — على سكان مدن دول الخليج العربية الذين قد يجدون فى مدن أجنبية أكثر تسامحا ، ما يمكنهم من تحقيق رغباتهم •

ولنناقش أخيرا الطبقة الحضرية الدنيا فى مجتمعات الشرق الاوسط • اذ تتألف هذه الطبقة من العمال والصناع فضلا عن العاطلين أو الذين يعملون فى مهن هامشية • وتكاد تضم هذه الطبقة قطاعا كبيرا من سكان مدن الشرق الاوسط • وهناك خصائص عامة تميز هذه الطبقة : ارتفاع ملحوظ فى معدلات المواليد والوفيات ، وانخفاض شديد فى معدلات الدخول ، وارتفاع نسبة الامية ، مما قد يحول دون ظهور وعى طبقى • ويبدو أن هذه الخصائص العامة هى التى دفعت أحد الباحثين المعاصرين الى القول بأن البروليتاريا الحضرية فى مدن الشرق الأوسط تختلف عن نظيرتها الغربية خلال المراحل الاولى من الثورة الصناعية[1] • أما السبب

(1) Van Nieuwenhuijze; Social Stratification in the Middle East; op. cit.

الاساسى لهذا الاختلاف فيتمثل فى ضعف الاساس الصناعى فى مدن الشرق الاوسط ، مما أدى الى حرمان العمال الحضريين من الفرص التى أتاحتها الثورة الصناعية لقرنائهم فى الدول الغربية يوما ما • ومع ذلك فاننا نجد ليرنر Lerner قد ذهب الى عكس ذلك حينما حاول البرهنة على أن الطبقة العاملة الحضرية فى مصر قد حققت وعيا شديدا فى أوائل خمسينيات القرن العشرين[1] • واذا ما تغاضينا عن هذه القضية الايديولوجية وجدنا أن القطاع الاكبر من أفراد الطبقة الدنيا يعملون فى المهن اليدوية سواء فى الاجهزة الحكومية أو المشروعات الخاصة • ففى البحرين لوحظ أن عددا كبيرا من أفراد الطبقة الدنيا يعملون فى مشروعات خاصة صغيرة • وطبقا لبيانات سنة ١٩٥٦ كان ٢٣٪ من أفراد القوة العاملة يعملون فى مشروعات صناعية لايزيد حجمها عن عشرة أشخاص[2] • وليس من الصعب علينا تفسير ارتفاع نسبة العمال غير المهرة فى مدن الشرق الاوسط اذا ما أخذنا فى اعتبارنا معدلات الهجرة الريفية ــ الحضرية ، وعدم ارتباط المعرفة الفنية بارتفاع المكانة الاجتماعية بوجه عام • ومع ذلك فان الطبقة الحضرية الدنيا لا تتألف فقط من العمال غير المهرة والخدم والبائعين الجائلين • انها تتألف أيضا من فئات أدنى مكانة تضم فيما تضم : الذباحين ، وغاسلات الملابس ، وفقراء الحلاقين ، وخدم المساجد والاماكن العامة ، واللحادين ، ودباغى الجلود ، والزبالين ، وناقلى آبار المجارى ، والنجر[3] • وبسبب الباعة الجائلين وحدهم ، تفقد المدينة الشرقية عنصرا هاما ــ طالما ميزها عبر تاريخها ــ هو الهدوء • أما التجارة الرائجة لهؤلاء الباعة فتختلف من موسم لآخر ومن مدينة لاخرى ، لكنها تدور عموما حول أوراق اليانصيب ، وأقلام الحبر الجافة ، والاحزمة ، والامشاط ، وعلب الكبريت ، ولعب الاطفال ، وأردية أنواع القماش • وعادة ما يمر الباعة الجائلون على المنازل فيجدون

---

(1) D. Lerner; The Passing of Traditional Society; op. cit.

(2) G. Baer; Population and Society in the Arab East; op. cit; p. 227.

(3) P. W. English; City and Village in Iran....op. cit; p. 76-79.

ترحيبا من السيدات اللائى قد يجدن فى مجرد استعراض السلع وسيلة لقتل الوقت والتخلص من ملل الحياة المنزلية الرتيبة • ومع ذلك كله فلقد أوضحت دراسة أجريت على مدينة عمان أن العمال المهرة (بما فى ذلك الحائلين) قد يحققون دخولا تفوق تلك التى يحصل عليها الموظفون الحكوميون ، على الرغم من أن ميزانية الاسرة العمالية تتعرض على الدوام للهزات العنيفة • وتفسر هذه الدراسة ذلك فى ضوء قضية مؤداها ، أن الاسرة العمالية المهاجرة من الريف غالبا ما تواجه صعوبة فى تنظيم ميزانيتها بسبب اختلاف الاحساس بالزمن فى كل من القرية والمدينة[1] •

واذا ما ألقينا نظرة شاملة على البناء الطبقى الحضرى فى مجتمعات الشرق الأوسط ، لاحظنا أن الاعتبارات الايكولوجية تلعب دورا بارزا فى تشكيله وتوزيعه • ففى مدينة القاهرة نجد الاحياء السكنية الفقيرة التى تقطنها الطبقة الدنيا تقع فى أقصى الجنوب والشرق والشمال مع وجود جزيرة كبيرة فى وسط المدينة • وفى أقصى الجنوب نجد أجزاء من الجيزة البندر ، كما نلمس قطاعا يمتد من مصر القديمة حتى السيدة مرورا بالمذبح والبغالة • وفى أقصى الشرق نجد الخليفة والحسنية مرورا بالقلعة والدرب الأحمر والجمالية ، وفى أقصى الشمال نجد أطراف شبرا الخيمة وشبرا البلد والساحل ثم امبابة • وفى وسط المدينة نجد كتلة بولاق والسبتية الى جانب جيوب ثانوية فى بولاق الدكرور وبين السرايات • وتتميز أحياء الطبقة الدنيا فى مدينة القاهرة بعدة خصائص شائعة : مبانى عتيقة ، وشوارع بلا تخطيط ، وكثافة سكانية عالية ، وحجم أسرة مرتفع ، وانخفاض مستوى المعيشة ، واختلاط السكن بالصناعة والتجارة • أما أحياء الطبقتين العليا والوسطى فتقع فى معظم المناطق القريبة من النيل : الزمالك ، وجاردن سيتى ، والجزء الاكبر من جزيرة الروضة • والملاحظ أن الاحياء السكنية الراقية فى مدينة القاهرة تقتصر على السكن الا اذا

---

(1) J. M. Hacker; Amman; University of Durham; 1960.

استثنينا بعض المؤسسات الادارية كالوزارات والمصالح والمؤسسات • ففى الزمالك وجاردن سيتى والدقى أخيرا ، تقع معظم السفارات والقنصليات • أما الشكل العمرانى لهذه المناطق فيتخذ شكل العمارات العالية، وأحيانا ناطحات صغيرة ، بينما تقل الفيللات بسبب ارتفاع أثمان الارض السوداء • وخلال السنوات العشر الاخيرة طرأت بعض التطورات الاقتصادية والعمرانية على أحياء الطبقة العليا فى مدينة القاهرة • فجاردن سيتى أصبحت اسم على غير مسمى • اذ هى الآن أشبه ما تكون بغابة من العمارات الضخمة أكثر منها كوكبة من الفيلات فى بحر من الحدائق ، كما أن نشاطات البنوك الاجنبية قد بدأت تمتد اليها لتحولها فى نهاية الامر الى منطقة تجارية بعيدة تماما عن الاغراض التى من أجلها أنشئت • ومع ذلك فان الفيللا ما تلبث أن تعود فتسود على رمال مصر الجديدة وضواحى الشمال الشرقى • وفيما بين أحياء الطبقة الدنيا وأحياء الطبقة العليا تنتشر أحياء الطبقة الوسطى • وتضم هذه الاحياء جماعات متباينة من الموظفين والمثقفين والتجار حيث تبدأ من فم الخليج والمنيرة وما حولها لتمتد الى النطاق العرضى الممتد من الفجالة والظاهر وغمرة عبر السكاكينى حتى الوايلى والعباسية • وقد يبدو لنا واضحا أن التدرج الاجتماعى فى مدينة القاهرة مرتبط بتدرج مكانى أو ايكولوجى • ومن الامثلة على ذلك محور جاردن سيتى (طبقة عليا) والمنيرة (طبقة وسطى) والقلعة (طبقة دنيا) • ومع ذلك ففى بعض الاحيان قد يتقارب أو يتواجه حى غنى مع حى فقير نظرا لاستعانة الأول بالقوة البشرية التى توجد فى الثانى • وتعبر الزمالك وبولاق عن ذلك أفضل تعبير • اذ لا يفصل بين هذين الحيين سوى مئات قليلة من الامتار هى عرض النيل • واذا ما حاولنا تحليل أهم التطورات التى طرأت على البناء الطبقى لمدينة القاهرة ، وجدنا أن خروج الاستعمار من الاحياء الراقية قد أتاح الفرصة لظهور أحياء وطنية تتبع الخطوط الطبقية للمجتمع المصرى بوجه عام • لكننا

ـ مع ذلك ـ لا نستطيع التوصل الى أية تعميمات حول خصائص الطبقات الحضرية المصرية العليا التى ورثت هذه الاحيـاء الراقية بعـد خروج البريطانيين والايطاليين واليونانيين منها • اذ يتطلب ذلك مزيـدا مـن الدراسات التاريخية الاحصـائية التى تمكننا من التعرف على طبيعـة الطبقات الاجتماعية الجديدة التى تشكل عصب هذه الاحياء الراقية •

obeikandl.com

خاتمـــة

obeikandl.com

obeikandl.com

مستقبل المدينة

على الرغم من أن الانسان قد ألف حياة المدينة منذ زمن طويل ، الا أنه لم يبد اهتماما بمشكلاتها ومستقبلها الا منذ فترة وجيزة • وفى كثير من الاحيان نجد بعض المفكرين والعلماء يعبرون عن مشاعر متناقضة نحو المدينة المعاصرة • فهى وان كانت قد أنجزت الكثير من التقدم التكنولوجى والازدهار الثقافى ، الا أنها كانت ــ فى نفس الوقت ــ سببا فى ظهور كثير من المشكلات التى أشرنا اليها على طول هذا الكتاب • والملاحظ أن التأملات الفلسفية والاجتماعية المتعلقة بالمدن المعاصرة لم تظهر إلا فى أواخر القرن التاسع عشر ، على الرغم من أن مدن العصور الوسطى قد شهدت مشكلات لاتقل خطورة عن تلك التى تعرفها مدننا الحديثة • ويعتبر أوزفالد شبنجلر Spengler رائد النظرة التشاؤمية للواقع الحضرى الذى يشهده عالمنا المعاصر • فهو يذهب الى أن المدينة المعاصرة هى « شيطان مدمر يفتك بكل شىء ، ثم ما يلبث أن ينهار بفعل خطاياه »[1] • أى أن المدينة تضم فى رحمها عناصر فنائها • غير أن الواقع المعاصر الذى نعيشه نحن أبناء القرن العشرين لا ينهض دليلا على ما يذهب اليه شبنجلر • فلم نعرف مدينة معاصرة انهارت بسبب مشكلاتها الحضرية مهما كانت خطورتها ، وان كنا لا ننكر وجود هذه المشكلات وتأثيراتها السلبية على الانسان والبيئة والمجتمع • ان التحضر العالمى لا يميل الى التناقض بقدر ما يميل الى التزايد ، ومانزال الحياة الحضرية أملا يتطلع اليه من يفتقدونها • أما الهجوم الذى شنه لويس ممفورد Mumford على المدينة المعاصرة فكان أخف حدة وأكثر اعتدالا • اذ يكاد يقتصر هذا الهجوم على جانب واحد من جوانب المدينة هو « السيطرة » أو « الهيمنة » على كافة جوانب الحضارة ، مما دفعه الى استخدام

---

(1) Oswald Spengler; The Decline of the West; New York: 1936; vol. 2; Chap. 4.

مصطلحات مثل « المدينة العاصمية » ، و « المدينة العملاقه » ، و « المدينة الطاغية » ، و « المدينة المنهارة »[1] . وعلى الرغم من الجاذبية والشمول التى تنطوى عليها كتابات ممفورد ، الا أنها تخلو من أية شواهد علمية صارمة تؤكد القضايا النظرية التى صاغها . ان المدن المعاصرة بيّ أيا كانت أنماطها وحجمها ، تكافح من أجل البقاء والاستمرار فى إثراء الحياة الانسانية برغم ما تواجهه من صعاب ومشكلات . لقد وجدت المدن لتبقى . ومن هنا فان البحث الحقيقى يجب أن يتجه الى خلق حياة حضرية أكثر اشباعا وسعادة . وعلى الرغم من أن هناك مشكلات مشتركة عديدة تواجه المدن المعاصرة كالتلوث ، والازدحام ، وتخلف المرافق الحضرية ، وقلة المساكن ، الا أن هناك عناصر ثقافية واجتماعية واقتصادية يجب أخذها فى الاعتبار عند تناول هذه المشكلات . واذا كانت التكنولوجيا الحديثة قد خلقت مشكلات حضرية عديدة ، الا أنها وحدها (أى التكنولوجيا) ليست قادرة على حل هذه المشكلات .

على أننى أعتقد أن جانبا كبيرا من المشكلات الحضرية التى تواجهها المدن المعاصرة بعامة ومدن الدول النامية بخاصة تبدأ من موقف معين يطلق عليه « التضخم الحضرى » الذى يشير الى « ضخامة عدد سكان المدن فى دولة معينة بالنظر الى إمكانياتها وقدراتها الحضرية »[2] . والاختلاف بين الدول المتقدمة والدول النامية فيما يتعلق « بالتضخم الحضرى » هو اختلاف فى الدرجة وليس فى النوع وما يترتب على ذلك من قدرات متفاوتة على مواجهته . فاذا كنا نجد كتابات تؤكد ضخامة المدن الصناعية وما أدت اليه من انهيار فى معالم البيئة الطبيعية بما فى ذلك زيادة التلوث وتعقد شبكات المواصلات ونمو الاحياء المتخلفة (برغم

---

(1) Lewis Mumford; The Culture of Cities; New York; 1956.

(٢) فيليب هاوزر « مشكلات التحضر السريع » فى : محمد الجوهرى وآخرون ، دراسات فى علم الاجتماع الريفى والحضرى ، ترجمة السيد الحسينى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ١٠٣ .

مشروعات التجديد الحضرى الهائلة) ، فاننا نجد أيضا كتابات أخرى تؤكد ضخامة مدن الدول النامية وما صاحب ذلك من هجرة ريفيه ـ حضرية واسعة النطاق ، وارتفاع فى معدلات البطالة ، وتدهور الهياكل الاساسية للمدن • وعلى الرغم من أن علماء الاجتماع ما يزالون مختلفين حول معايير قياس « التضخم الحضرى » ، الا أنهم متفقون على معنى عام له هو : ضخامة عدد السكان الحضريين بالنظر الى متطلبات الاقتصاد الحضرى من ناحية ، والهياكل الاساسية للمدن من ناحية أخرى[1] • ويبدو أن الفارق الاساسى بين « التضخم الحضرى » فى الدول الصناعية المتقدمة و « التضخم الحضرى » فى الدول النامية هو ان الاخير غالبا ما يرتبط « بتضخم ريفى » ، بمعنى أن عدد السكان الريفيين يفوق امكانيات نمو الانتاج الزراعى وما يرتبط به من تكنولوجيا وأساليب انتاجية •• ومعنى ذلك أن « التضخم الحضرى » ما هو الا تعبير عن « التضخم الريفى » وعلى الاخص فيما يتعلق بالدول النامية • ولقد أشار بعض الباحثين الى أن هناك ارتباطا موجبا عاليا بين كل من « التضخم الحضرى » و « التضخم الريفى » فى الدول النامية •• ومع تسليمنا بوجود مثل هذا الارتباط ، الا أننا نعتقد أن التنمية الاقتصادية قد تصبح متغيرا وسيطا من شأنه الحد من مثل هذا الارتباط • فمن خلال مشروعات التنمية الاقتصادية (الحضرية والريفية) تختفى معالم التضخم بشكليه الحضرى والريفى ، لتصبح القوة البشرية عونا على تحقيق التقدم الاقتصادى •• لذلك فان القول بوجود « تضخم حضرى » أو « ريفى » هو قول محكوم باطار اقتصادى ـ سياسى ـ ثقافى • واذا ما تغير هذا الاطار ، تحول التضخم السكانى من عبء اقتصادى الى عون بشرى • فمن خلال مشروعات التنمية الاقتصادية المكثفة فى الصين اختفت مفاهيم « كالتضخم الحضرى » برغم أن عدد

---

(1) N. V. Sovani; «The Analysis of Overurbanization»; in Gerald Breese (ed.) The City in Newly Developing Countries; Princeton Univ. Press; 1972; pp. 322-330.

السكان الحضريين فيها يكاد يفوق عدد السكان الحضريين فى عدة قارات (استراليا وأمريكا الشمالية ومعظم أفريقيا) • ومعنى ذلك أن نمط التنمية يلعب دورا هاما فى تحديد طبيعة المشكلات الحضرية[١] •

وعلى الرغم من أن تشخيص المشكلات السكانية الحضرية لا ينفصل عن الاعتبارات الايديولوجية والثقافية ، الا أن ذلك لا يمنعنا من التعرف على الاتجاهات المستقبلية للتحضر فى مختلف أنحاء العالم • وقد يكون من المفيد هنا الاشارة الى التقديرات التى قدمها هومر هويت Hoyt فى سنة ١٩٦٢ • وعلى الرغم من أن هذه التقديرات ليست حديثة تماما ، الا أنها تستند الى بيانات دقيقة ومعالجات احصائية فنية ، قل أن نجد لها نظيرا فى الدراسات السكانية الحديثة[٢] • وتشير هذه التقديرات الى أن عدد سكان المدن (١٠٠ر٠٠٠ نسمة فأكثر) فى عام ٢٠٠٠ سيكون موازيا لمجموع عدد سكان العالم الآن • ويمثل هذا زيادة من حوالى ٥٩٠ مليون نسمة يعيشون فى مدن سكانها ١٠٠ر٠٠٠ فأكثر عام ١٩٦٠ الى ٢٦٤٤ مليون نسمة يتوقع أن يعيشوا فى تلك المدن فى عام ٢٠٠٠ ، أى بزيادة قدرها ٣٠٠٪ • هذا بينما تبلغ النسب المئوية لسكان المدن ذات المائة ألف نسمة فأكثر من مجموع سكان العالم فى سنة ١٩٦٠ حوالى ١٩ر١٩٪ ، وفى عام ٢٠٠٠ حوالى ٢ر٤٢٪ • كذلك تشير هذه التقديرات الى أن نسبة سكان العالم الذين يعيشون فى مدن « مليونية » سترتفع من ٦ر٩٪ فى عام ١٩٦٠ الى ٥ر٢٠٪ فى عام ٢٠٠٠ ، أى أن عددهم سيزداد من ٢٨٥ مليون نسمة فى سنة ١٩٦٠ الى ١٢٨٥ مليون نسمة فى سنة ٢٠٠٠ [٣] • واذا

---

(١) عرضنا بالتفصيل لوجهات نظرنا حول هذه القضية فى دراسة متخصصة . انظر : السيد الحسينى ، العالم الثالث : تنمية أم تبعية ؟ فى : السيد الحسينى وآخرون ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٧ ، ص ص ٢٠٠ وما بعدها .

(2) Homer Hoyt; Urbanization : Expanding Population in a Shriking World; in L. A. Fayre (ed.) Urbanism in World Perspective; Thomas Y. Crowell Co; 1968.

(3) Ibid; p. 122.

كان لنا أن نعيد تفسير هذه الشواهد الإحصائية ، قلنا ان معدلات التحضر فى كل من الدول المتقدمة والنامية سوف تستمر فى الارتفاع على الاقل حتى نهاية هذا القرن ، وان كانت الدول الاولى (المتقدمة) تستطيع ــ بدرجة كبيرة ــ استيعاب المشكلات الناجمة عن ارتفاع معدلات التحضر • أما الدول النامية التى تشهد ــ فى نفس الوقت ــ معدلات تحضر عالية ومعدلات تنمية اقتصادية منخفضة ، فانها قد لا تستطيع مواجهة مشكلات التحضر فى ضوء نمط التنمية السائد فيها ، خاصة وأن خططها التنموية تميل الى منح المناطق الحضرية أولوية خاصة مع ما يترتب على ذلك من تجاهل واهمال للمناطق الريفية[1] • واذا ما سلمنا بصدق نظرية « العوامل الطاردة » و « العوامل الجاذبة » فى تفسير ارتفاع معدلات التحضر فى الدول النامية ، فان نمط التنمية الذى تعرفه الدول النامية الآن يميل الى تدعيم « عوامل الطرد » بقدر ما يشجع عوامل « الجذب » • لذلك فان العلاقة بين المدينة والقرية فى الدول النامية مانزال بحاجة الى مزيد من التحديد والتعرف • لقد درج علماء الاجتماع على مناقشة هذه العلاقة فى ضوء الاعتبارات السكانية والاقتصادية والمكانية ، وانتهوا من ذلك الى تأكيد الطابع « التكاملى » لهذه العلاقة الريفية ــ الحضرية • وواقع الامر أن مثل هذا التصور لا يفيد كثير البحث الاجتماعى الحضرى ، كما أنه يستند الى أفكار ومفاهيم خاطئة حول الدور التاريخى لكل من القرية والمدينة • إن مفاهيم كالسيطرة والسلطة والخضوع والاستغلال قد تكون أكثر فائدة فى دراسة العلاقة بين القرية والمدينة اذا ما قارناها بمفاهيم كالتكامل والتساند والتبادل •

واذا ما حللنا معدلات التحضر فى الدول النامية فى ضوء نظرية بنائية شاملة ، وجدنا أنها تمثل عرضا لنمط التنمية أكثر مما تمثل سببا لطابع التخلف • ولكى ندلل على وجهة نظرنا قد نستشهد بمشروعات الاصلاح

---

(1) P. T. Bauer and B. S. Yamey; The Economics of Underdeveloped Countries; Cambridge University Press; 1965.

الزراعى فى الدول النامية التى كان يجب ـ على الاقل من الناحية النظرية ـ أن تسهم فى خفض معدلات الهجرة الريفية ـ الحضرية [١] . لقد سعت برامج الاصلاح الزراعى الى الحد من التبذير فى تكاليف الانتاج ، ومنح الفلاحين المعدمين قطعا من الارض الزراعية ، ثم تحرير المستأجرين من كل ضروب التعسف والظلم التى كانوا يخضعون لها . وليس هناك من شك فى أن اجراءات الاصلاح الزراعى قد حققت بعض النتائج الايجابية التى لايمكن تغافلها أو التقليل من شأنها . بيد أننا يجب أن ننظر إلى هذه القضية من منظور أكثر شمولا . فتفتيت الملكيات الزراعية الكبيرة وتحويلها الى حيازات « قزمية » لن يحقق فى نهاية الامر الفائض الاقتصادى الزراعى الضرورى الذى تحتاج اليه الدول النامية ، فضلا عن أن الزيادة الضئيلة فى دخول الفلاحين سرعان ما تمتص بسبب زيادة عدد السكان ، وهى زيادة تؤدى ـ بدورها ـ الى مزيد من التفتيت فى الاراضى الزراعية ، مما يعنى استمرار (بل وازدياد) صعوبة استخدام الميكنة الزراعية والاساليب الانتاجية الحديثة . ولقد لوحظ أن ارتفاع دخول المنتفعين ببرامج الاصلاح الزراعى لا يفيد الاستثمار فى مجال الانتاج بقدر ما يتجه الى الاستهلاك . وهذا يعنى أن برامج الاصلاح الزراعى كما تطبق فى كثير من الدول النامية وان كانت تؤدى الى بعض النتائج الايجابية ، الا أنها ليست « الحل السحرى » لمشكلات القرية ، وبالتالى مشكلات المدينة [٢] . ان دور هذه البرامج محكوم بعوامل عديدة منها طبيعة الفئة أو الطبقة التى تتبنى هذه البرامج ، وتأثيرها (أى البرامج) على الفئات والطبقات الاخرى ، وطبيعة الاجراءات الثورية الحقيقية التى تتبع عند تنفيذ هذه البرامج . ومما سبق يبدو واضحا أن

---

(١) لمزيد من التفصيل انظر : السيد الحسينى ، القرية فى الدول النامية ، تحليل نقدى لبعض اتجاهات التغير الاجتماعى ، فى : السيد الحسينى وآخرون ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، المرجع السابق ٣٨٨ وما بعدها .

(2) M. Lipton; «Strategy for Agriculture : Urban Bias and Rural Planning in India»; in P. Streeten and M. Lipton (eds.); The Crisis in Indian Planning; Oxford University Press; 1968; pp. 130-147.

الاصلاح الزراعى ليس مجرد عملية ادارية أو اقتصادية خالصة ، انه أولا وقبل كل شئ عملية سياسية[1] . إن الاسباب الحقيقية للفقر وانخفاض الانتاجية فى قرى الدول النامية لا تتمثل فى الظروف البيئية والطبيعية بقدر ما تتمثل فى العلاقات الاجتماعية الاستغلالية التى تربط كبار الملاك بالمعدمين ، وتلك التى تربط الاخيرين بمراكز القوة السياسية والاقتصادية ، وذلك على المستويين القومى والعالمى .

واستنادا الى ما سبق يصعب القول بأن الدول النامية تتجه بالفعل نحو خلق « مجتمعات حضرية استهلاكية جماهيرية » اذا ما استخدمنا تعبير وألت روستو Rostow . حقا لقد نمت المراكز الحضرية فى هذه الدول نموا ملحوظا يفوق نمو المناطق الريفية فى بعض الاحيان ، وارتبط ذلك بارتفاع نسبى فى مستويات الاستهلاك لدى القطاعات الحضرية ، لكن يجب ألا ننسى أن هذه المراكز الحضرية تزخر « بمدن الصفيح » و « أحياء واضعى اليد » التى تعكس جميعها ظروفا فيزيقية واجتماعية وثقافية بالغة القسوة . واذا كانت « أحياء واضعى اليد » تعبر لنا عن « الهامشية الحضرية » (ان كان لنا استخدام تعبير روبرت بارك) ، فان ضخامة عدد سكان هذه الاحياء لهو أفضل دليل على سيطرة « الهامشية الاجتماعية » . واذا كان بعض الدارسين يميلون الى تفسير ضخامة عدد سكان هذه الاحياء فى ضوء ارتفاع معدلات الهجرة الريفية ـ الحضرية ، ونسب الزيادة الطبيعية للسكان الحضريين ، الا أن هذه الحقائق الاحصائية يجب ألا تحجب عنا الحقيقة البنائية الهامة وهى ، أن المناطق الريفية الفقيرة فى الدول النامية تدفع سكانها دفعا نحو سراب المدن . ولعل أفضل دليل على صدق هذه النقطة أن العمل الصناعى ـ فى معظم الدول النامية وكما تشير الى ذلك البيانات الاحصائية ـ لا يستطيع استيعاب سوى أعداد محدودة جدا من المهاجرين الريفيين[2] . وتفسير هذا الموقف

(1) A. G. Frank; «Varieties of Land Reform»; in A. G. Frank Latin America : Underdevelopment or Revolution; Monthly Review Press; 1969; pp. 269-275.

(2) A. G. Frank; «Urban Poverty in Latin America»; in A. G. Frank; Latin Amercan : Underdevelopment or Revolution; op. cit; pp. 248 ff.

كامن فى أسلوب التنمية الذى يعتمد اعتمادا أساسيا على رؤوس الاموال والتكنولوجيا الاحتكارية • والواقع أننى لا أتخـذ هنا موقفا معارضا من التقدم التكنولوجى فى حد ذاته ، ولكننى أتخذ موقفا مضادا من التكنولوجيا الاحتكارية التى لا تتمكن من امتصاص الاعداد الغفيرة من المهـاجرين الريفيين الى المدن • ولعـل الاهمية التى يحتلها مفهـوم « الهامشية » (الاجتماعية والاقتصادية والسياسية) تنبع من هذه الحقيقة : حقيقـة اخفاق أعداد كبير من المهاجرين الريفيين فى الالتحاق بأعمال صناعية ، ثم لجوئهم الى أعمال « هامشية » لاتتصل كثيرا بالبنـاء الصناعى ــ الحضرى[1] •

واذا كنا نجد بعض علماء الاجتماع يميلون الى ابراز العلاقـة بين التنمية الاقتصادية والتحضر باعتبارها علاقة متبادلة فيها قـدر كبير من التسـاند ، فاننى أميل الى ابراز الـدور الذى تلعبه التنمية فى تحـديد نطاق التحضر ومـداه بل ومعنـاه • ومعنى ذلك أن التنميـة الحقيقية الشاملة هى المدخل الواسع والآمن لحل المشـكلات الحضرية • ان الاهتمام بتنمية المناطق الحضرية على حساب المناطق الريفية سـوف يخلـع على المدينة جاذبية غير مرغوبة ، بمعنى أن تزداد قدرتها على سحب المهاجرين الريفيين اليها • وهذا يعنى ــ ببساطة ــ أن تنمية منطقة معينة (ولتكن مدينة) سوف يؤدى الى تخلف مناطق أخـرى (ولتكن قرى) • ليس ذلك فحسب • بل ان ذلك قد يعمل على ظهور « حلقة مفرغة خبيثة » تختفى فيها الاسباب والنتائج ، ويذوب الواقع حتى يصعب الامساك به • ومن هنـا تبدو التنمية الاقتصادية ــ الاجتماعية الشاملة هى المدخل الحقيقى لحل المشكلات الحضرية المعاصرة • ويجب أن تستند هذه التنمية الى تذويب الفوارق الطبقية واعادة توزيع الدخل القومى على نحو يسمح بالحـد من تأثير كل من عوامل « الطـرد » و « الجـذب » على السـواء • أمـا

(1) Sutcliffe; R; Industry and Underdevelopment; Addison-Wesley; London; 1971; p. 130.

« المدن الاولى » التى تتخذ وضعا « طفيليا » فى الدول النامية على وجه الخصوص فيجب أن تصبح « مدن مغلقة » وتنقل منها معظم الصناعات الاستهلاكية الخفيفة والنشاطات الادارية التى يجب أن تتكفل بها المدن الاقليمية [1] • واذا كانت الادارة قد لعبت دورا واضحا فى نمو كثير من عواصم الدول النامية ، فان اللامركزية الادارية هى السبيل الوحيد لمواجهة « التكدس الادارى » المصاحب « للتضخم الحضرى » • واذا كانت العواصم قد ظلت لفترة طويلة تجذب الموهوبين من أبناء الاقاليم ، فان الواقع الحضرى المعاصر يفرض على الموهوبين تطوير أقاليمهم • ويتطلب ذلك اعادة النظر فى التوزيع المكانى للمؤسسات التعليمية والتربوية على نحو يضمن العدالة بين الاقاليم المختلفة •

وتبدو الاقليمية الحضرية فى نظر بعض الباحثين وكأنها الحل الوحيد المتاح لطغيان العاصمة وتنمية الاقاليم • وفى بداية الأمر ظهرت « الاقليمية الحضرية » التى تسعى الى اكساب كل اقليم من أقاليم الدولة « شخصية حضارية » متميزة • غير أن ذلك ما لبث أن أدى الى ظهور « الاقليمية الاقتصادية » التى تهدف الى تعميق المصالح الاقتصادية على نحو يضمن ارساء معالم اقتصادية تميز كل اقليم من الاقاليم • وفى نهاية الامر ظهرت « الاقليمية الاساسية » التى تسعى الى تدعيم الحكم المحلى باعتباره علامة على « الشخصية السياسية الاقليمية » • والواقع أن الاقليمية بهذا المعنى ليست حركة « انفصالية » عن جسم الدولة بقدر ما هى حركة لتحقيق « الوحدة » من خلال التنوع • والاقليمية بهذا المعنى هى « اشتراكية المكان » أو قل هى الترجمة المكانية للنظرية الاشتراكية السياسية • وليس من الصدفة أن يكون أبرز ممثلى « النزعة الاقليمية » مفكرون اشتراكيون من أمثال كول Cole وممفورد Mumford • ان العاصمية أو المركزية هى الرأسمالية أو الاقطاع الذى تحتكر فيه مساحة

---

(1) E. Banfield; The Unheavenly City; Little Brown; Boston; 1968.

قليلة أو رقعة محدودة أكبر قدر من ثمرات الحضـــارة . وليس من الصدفة كذلك أن يكون انطلاق المركزية العاصمية مصاحبا لانفجار الرأسمالية الغربية [١] . ان طغيان العاصمة وامتصاصها لموارد الاقاليم يجعل من الاخيرة ضيعة للاولى . لذلك فان الاقليمية لا تؤدى فقط الى تحقيق العدالة الاقليمية بالنسبة للاقاليم فحسب ، ولكنها أيضا رحمة بالعاصمة لانها تخفف من أعباء الحكومة المركزية التى يشتد عليها الضغط حتى تنوء بالعبء وتفقد كثيرا من كفاءتها ، ويصبح جهازها الادارى عاجزا عن تحقيق وظائفه . فالاقليمية تنقل السلطة الى حيث تنتمى والى حيث ينبغى . بهذا المعنى فقط تصبح الاقليمية رمزا للعزة الوطنية لا النعرة الاقليمية . ويجب أن تفيد المجتمعات المعاصرة من التكنولوجيا الحديثة فى تحقيق « اشتراكية المكان » . فمن خلال وسائل الاتصال المتطورة أصبح بالامكان ادارة شئون الدول الكبرى فى هدوء . واذا كانت الدول المتقدمة قد حققت أقصى الفوائد من وسائل الاتصال الحديثة فى حل مشكلة المركزية ، فان الدول النامية مازال بحاجة الى الافادة من تجارب الدول المتقدمة فى هذا المجال .

وفى مواجهة مشكلة « التضخم الحضرى » تبدو المدن الاقليمية هى القادرة على تحقيق « التوازن الحضرى » . ومعنى ذلك أن « اعادة التوزيع الحضرى » هى عملية حتمية لحل كثير من مشكلات العاصمة والمدن المتضخمة ، بحيث تصبح « العواصم الاقليمية » الطبيعية وسيلة لارساء الاسس الحضارية لاقاليم الدولة المختلفة . ومن أسف أن نجد جهود بعض الدول النامية فى هذا المجال لاتحقق نجاحا ملموسا . اذا ما تلبث « العواصم الاقليمية » ان تصبح « ضواحى » للعاصمة فتفقدها خصائصها وامكانياتها . إن « الضمور الاقليمى » هو أحد السمات المميزة للدول النامية . فالمدينة ليست قادرة على رفع مستوى الاقليم لضعفها

---

(١) جمال حمدان ، جغرافية المدن ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ص ٣٨٢ وما بعدها .

وعجزها المادى وذبولها الحضارى ، كما أن الاقليم عاجز عن تقوية مدينته وبعثها نظرا لان فائضه وطاقاته المادية والبشرية تمتصها العاصمة المركزية الطاغية[1] • وبذلك يصبح تضخم العاصمة hypertrophy هو ضمور المدن الاقليمية atrophy • وفى أكثر الحالات سخرية تصبح « العاصمة هى الدولة » أو يكاد • أما « مجتمع المدن » فيتخذ شكلا هرميا بعيدا عن الاتزان والنضج : مفلطح القاعدة ، حاد القمة ، مختنق الخاصرة • ومعنى ذلك اختفاء « الطبقة الوسطى » من المدن • فلا تملك الدولة سوى مدينة أو مدينتين طاغيتين من ناحية ، وبضع عشرات أو مئات من المدن «القزمية» من ناحية أخرى • ومن هنا تبدو التنمية الحضرية ضرورة حتمية • أما الخطوة الاولى لتحقيقها فهى تصفية « الحجم المرضى » للمدن الكبرى الطفيلية ، ثم تطوير المدن الاقليمية التى هى دعامة الحياة الحضرية • ولا نقصد بذلك القضاء على السمات الثقافية الحضرية ، بل اعادة تشكيلها وتوزيعها • إن « أحياء الصفيح » التى اشتهرت بها كثير من مدن العالم لهى أفضل دليل على إفلاس « التحضر المرضى » • وليس من الضرورى أن تعمل الدولة على انشاء مراكز حضرية جديدة تماما ، خاصة اذا ما كانت امكانياتها المادية تحول دون ذلك • اذ يبدو تدعيم المدن الاقليمية القائمة حلا مقبولا اذا ما أردنا تصفية مشاكل المدن الكبرى أو العواصم • ولا يمكن تحقيق ذلك كله الا من خلال النهوض بالمناطق الريفية • واذا ما سلمنا بالتصورات البنائية التى تبنيناها على طول هذا الكتاب فان تنمية المناطق الريفية تصبح هى المدخل الحقيقى لتنمية المناطق الحضرية • ان تجاهل بعض علماء الاجتماع لهذه الحقيقة البنائية كان سببا فى التشخيص الخاطىء لمشكلات المدينة والقرية على السواء •

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٠٩ . وكذلك مقدمتنا لكتاب « علم الاجتماع الريفى والحضرى » ، مرجع سابق .

obeikandl.com

قائمة ببليوجرافية

obeikandl.com

obeikandl.com

أولا : باللغة العربيـــة

١ ــ **ابراهيم عبد الرحمن** ، تخطيط المـــدن فى العـــالم العربى ، المنظمـــة العالمية للثقافة وجمعية المهندسين ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

٢ ــ **ابن خلدون** ، المقدمة ، مطبعة التقدم ، القاهرة ، ١٩٧٤ .

٣ ــ **احمد أبو زيـــد** ، « الحركـــة النقابية والتحـــرر الافريقى » ، مجلـــة السياسـة الدولية ، العدد الرابع ، ١٩٦٦ ، ص ص ٧٤ ــ ٨٥ .

٤ ــ **أحمد النكلاوى** ، القاهـــرة ، دراســـة فى علم الاجتمـــاع الحضرى ، القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٣ .

٥ ــ **أحمد صادق سعد** ، « الصناعة فى مصر : نموها وتوزيعها وهيكلها » ، عرض لكتاب مايكل باربو ؛ مجلة الطليعة ، العـــدد الثامن ، الســـنة التاسعة ، اغسطس ١٩٧٣ ، ص ص ١٣٣ ــ ١٣٥ .

٦ ــ **أحمـــد كمال وسنية خليل وكرم حبيب** ؛ عـــلم الاجتمـــاع الحضرى : دراســـة بنائية وظيفية للمجتمـــع الحضرى ، القاهرة ، دار الجيـــل للطباعة ، ١٩٧٦ .

٧ ــ **أحمد مجدى حجازى** ، البنـــاء الطبقى فى القريـــة المصرية ، رســـالة ماجستير غير منشورة ، كليه الآداب ، جامعة عين شمس ، ١٩٧٥ .

٨ ــ **اسحق القطب وعبد الاله أبو عياش** ، النمـــو والتخطيط الحضرى فى دول الخليج العربى ، الكويت ، وكالة المطبوعات ، ١٩٨٠ .

٩ ــ **اسحق القطب** ، « الحركة السكانية من الريف الى المـــدن » ، مجلة كليـــة الآداب والتربيـــة ، العـــدد الثـــانى عشر ، ١٩٧٧ ، ص ص ٩ ــ ٣٢ .

١٠ ــ **البنك الدولى** ، تقرير عن التنمية فى العالم ، واشنطن ، المطبوعات العربية ، باريس ، ١٩٧٩ .

١١ ــ **الجمعية المصرية للدراســـات التاريخية** ، الارض والفـــلاح فى مصر على مـــر العصـــور ، تأليف نخبـــة من المتخصصين ، القاهـــرة ، ١٩٧٤ .

١٢ ــ **السيد الحسينى** ، « عرض وجيز لاهم اسهامات لويد وارنر فى دراسة التدرج الإجتماعى » ، المجلة الاجتماعية القومية ، العدد الثالث ، ١٩٦٦ ، ص ص ٩١ ــ ١١١ .

١٣ ــ **السيد الحسينى ومحمد على محمد** ، « الفروق الزيفية الحضرية فى مصر » ، منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، ١٩٧١ .

١٤ ــ **السيد الحسينى** ، « العالم الثالث : تنمية ام تبعية » فى السيد الحسينى وآخرون ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ص ١٥٠ ــ ٢٠٠ .

١٥ ــ ــــــــــــــ ، « الدولة فى المجتمع الراسمالى : تحليل نقدى » دراسة حول كتاب رالف ميلباند ، المجلة الاجتماعية القومية ، ١٩٧٣ ، ص ص ٩٥ ــ ١٠١ .

١٦ ــ ــــــــــــــ ، اتجاهات علم الاجتماع فى فهم مشكلات الدول النامية » فى **السيد الحسينى وآخرون** ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ص ١ ــ ١٤٩ .

١٧ ــ ــــــــــــــ ، « القرية فى الدول النامية : تحليل نقدى لبعض اتجاهات التغير الاجتماعى » فى **السيد الحسينى وآخرون** ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ص ٣٨٢ ــ ٤١٨ .

١٨ ــ ــــــــــــــ ، « التقليد والتحديث فى علم الاجتماع المعاصر مع اشارة خاصة لمجتمعات الخليج العربى » ، الندوة العلمية العالمية الثالثة لمركز دراسات الخليج العربى ، منشورات مركز دراسات الخليج العربى ، جامعة البصرة ، الكتاب الاول ، ١٩٧٩ ، ص ص ٤٢٥ ــ ٤٤٩ .

١٩ ــ ــــــــــــــ ، علم الاجتماع السياسى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٠ (وعلى الاخص الفصل الاول) .

٢٠ ــ **امل الصباح** ، الهجرة الى الكويت ، جامعة الكويت ، ١٩٧٨ .

٢١ ــ **انور الرفاعى** ، الاسلام فى حضارته ونظمه الادارية والسياسية والادبية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والفنية ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٣ .

٢٢ ــ **بيلز وهوجر** ، مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة ، **ترجمة محمد الجوهرى والسيد الحسينى** ؛ دار نهضة مصر للطبع والنشر ؛ ١٩٧٦ (وعلى الاخص الفصول التى تتناول انتاج الطعام والحياة الحضرية ، والانثروبولوجيا الحضرية ، والانثروبولوجيا التطبيقية) .

٢٣ ــ **جامعة الدول العربية ، الامانة العامة** ، النمو الحضرى فى الوطن العربى ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٧١ .

٢٤ ــ **جدعون جوبرج** ، « الفروق الريفية ــ الحضرية : دراسة فى علم الاجتماع الريفى » **ترجمة محمود عوده فى : محمد الجوهرى وآخرون** ، ميادين علم الاجتماع ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٦ ؛ ص ص ٦٦ ــ ١١٩ .

٢٥ ــ ــــــــــــــ ، علم الاجتماع الحضرى المقارن ، **ترجمة السيد الحسينى ، فى : محمد الجوهرى وآخرون** ، دراسات فى علم الاجتماع الريفى والحضرى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٩ ، ص ص ١٣ ــ ٤٨ .

٢٦ ــ **جلال أمين** ، التحضر والتنمية الاقتصادية فى العالم العربى ، جامعة بيروت العربية ، بير وت ، ١٩٧٢ .

٢٧ ــ **جمال حمدان** ، نمو وتوزيع السكان فى مصر ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

٢٨ ــ ــــــــــــــ ، المدينة العربية ، معهد الدراسات العربية ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

٢٩ ــ ــــــــــــــ ، « مقدمة كتاب القاهرة » **تأليف ديزموند ستيوارت ، ترجمة يحيى حقى** ، كتاب الهلال ، القاهرة ، مارس ١٩٦٩ .

٣٠ ــ ــــــــــــــ ، شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان ، كتاب الهلال ، القاهرة ، يوليو ١٩٦٦ .

٣١ ــ ــــــــــــــ ، جغرافية المدن ، الطبعة الثانية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

٣٢ ــ **جهينه سلطان العيسى** ، التحديث فى المجتمع القطرى المعاصر ، دار كاظمة للنشر ، الكويت ، ١٩٧٩ .

٣٣ ــ **جيرالد بريز** ، مجتمع المدينة فى البلاد النامية : دراسة فى علم الاجتماع الحضرى ، **ترجمة وتقديم محمد الجوهرى ، القاهرة** ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، ١٩٧٢ .

٣٤ ــ **حسن ابراهيم** ، تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، العصر العباسى الثانى فى الشرق ومصر والمغرب والاندلس ، القاهرة ، النهضة المصرية ، الجزء الثالث .

٣٥ ــ **حسن الساعاتى** ، « التقدم العمالى والصناعى فى مصر المعاصرة » ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، المجلد الثامن ، ١٩٥٤ ، ص ص ١١٩ ــ ١٤١ .

٣٦ ــ ــــــــــــــ ، التصنيع والعمران ، بحث ميدانى للاسكندرية وعمالها ، دار المعرفة ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٢ .

٣٧ ــ ــــــــــــــ ، « تكيف العمال الريفيين فى الاطار الحضرى الصناعى » ، فى **لويس كامل مليكة** (محرر) ، قراءات فى علم النفس الاجتماعى فى البلاد العربية ، القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٥ ، ص ص ٦٢٠ ــ ٦٢٦ .

٣٨ ــ **حنا يسى البياضى** ، التحديث والنمو الحضرى فى العاصمة السودانية فى ضوء آراء دانيال ليرنر ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٦ .

٣٩ ــ **رشدى بطرس** ، « العلاقة بين تخطيط المدينة والتخطيط القومى » فى أعمال المؤتمر الثانى لمنظمة المدن العربية ، مطبعة حكومة الكويت ، الكويت ، ١٩٧٠ .

٤٠ ــ **رودولف ستهافنهاجن** ، الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية ، **ترجمة ناجى أبو خليل** ، دار الحقيقة ، بيروت ، ١٩٧٢ .

٤١ ــ **رؤوف عباس حامد** ، الحركة العمالية المصرية منذ نشأتها حتى ثورة يوليو ١٩٥٢ ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

٤٢ ــ **سوتى أوتز** ، « ثقافة الفلاحين » ، **ترجمة السيد الحسينى فى : محمد الجوهرى وآخرون** ، دراسات فى علم الاجتماع الريفى والحضرى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ص ٣١٩ ــ ٣٤٠ .

٤٣ ــ **صادق مهدى السعيد** ، السكان والقوى العاملة فى اقطار الخليج العربى ، ضمن اعمال ندوة الخليج العربى ، جامعة البصرة ، مارس ١٩٧٥ .

٤٤ ــ **صبحى عبد الحكيم** ، مدينة الاسكندرية ، دراسة جغرافية ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٥٨ .

٤٥ ــ ــــــــــــ ، الموقف السكانى فى الوطن العربى ، مجلة الشرق الاوسط ، جامعة عين شمس ، العدد الثانى ، ١٩٧٥ ، ص ص ١ ــ ٢٥ .

٤٦ ــ **عادل عبد السلام** ، بلدان الخليج العربى : دراسة ديموجرافية ، ندوة تنمية الموارد البشرية فى الخليج العربى ، البحرين ، ١٩٧٥ .

٤٧ ــ **عادل غنيم** ، « ملاحظات حول تطور العلاقات الاقتصادية والطبقية فى الريف » مجلة الطليعة ، العدد التاسع ، السنة الثانية ، سبتمبر ١٩٦٦ ، ص ص ٦٦ ــ ٦٩ (ضمن ملف عن الريف المصرى) .

٤٨ ــ **عاصم الدسوقى** ، كبار ملاك الاراضى الزراعية ودورهم فى المجتمع المصرى المعاصر ، ١٩١٤ ــ ١٩٥٢ ، دار الثقافة الجديدة ، ١٩٧٥ .

٤٩ ــ **عاطف احمد فؤاد** ، الطبقات والسلطة فى المجتمع المصرى ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، ١٩٧٥ .

٥٠ ــ **عاطف وصفى وعبد الهادى الجوهرى** ، دراسات فى علم الاجتماع الحضرى ، المجموعة الافريقية ، الكتاب الاول : التحضر والهجرة ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٥ .

٥١ ــ **عايده بشاره** ، التوطن الصناعى فى الاقليم المصرى ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٣ .

٥٢ ــ **عبد الباسط حسبن** ، علم الاجتماع الصناعى ، مكتبة غريب ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٨ (وعلى الاخص الفصول من الحادى عشر حتى الثالث عشر) .

٥٣ ــ **عبد الباسط عبد المعطى** ، الصراع الطبقى فى القرية المصرية ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

٥٤ — **عبد الرازق عباس حسين** ، نشأة مدن العراق وتطورها ، القاهرة ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

٥٥ — ———— ، جغرافية المدن ، مطبعة سعد ، بغداد ، ١٩٧٧ .

٥٦ — **عبد الرحمن صافق الشريف** ، مدينة الرياض ، الرياض ، مطبعة المدينة ، ١٩٧٦ .

٥٧ — **عبد الفتاح وهيبه** ، فى جغرافية العمران ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٣ .

٥٨ — **عبد الكريم اليافى** ، الهجرة وتحركات السكان ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الخامس ، العدد الرابع ، ١٩٧٥ .

٥٩ — **عبد المنعم شوقى** ، علم الاجتماع الحضرى ، القاهرة ، مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٦٦ .

٦٠ — **عبد المنعم ماجد** ، تاريخ الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى ، مكتبة الانجلو ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

٦١ — **عبد الوهاب ابراهيم** ، اثر اعادة توزيع الملكيات الزراعية على البناء الاجتماعى فى القرية المصرية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، ١٩٧٤ .

٦٢ — **عبد الله الصادق ابراهيم** ، الآثار الاجتماعية للتنمية الصناعية فى مدينة ميت غمر ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٧ .

٦٣ — **عبد الله على حامد العبادى** ، انماط ونماذج المدن الكبرى فى السودان ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

٦٤ — **عبد الله ابو عياش وأسحق القطب** ، الاتجاهات المعاصرة فى الدراسات الحضرية ، الكويت ، وكالة المطبوعات ، ١٩٨٠ .

٦٥ — **عبد الاله ابو عياش** ، « الكويت بين النمو الاستقطابى والتوازن الاقليمى » ، مجلة دراسات الخليج وشبه الجزيرة العربية ، السنة الثالثة ، اكتوبر ١٩٧٧ ، ص ص ١١ — ٣٩ .

٦٦ ــ ــــــــــــــــ ، « الجوانب السلوكية فى التخطيط الحضرى لدول الخليج العربى » ، مجلة دراسات الخليج وشبه الجزيرة العربية ، السنة الخامسة ، يناير ١٩٧٩ .

٦٧ ــ **عبد الامير رحيم العبود** ، « الانفجار السكانى فى العالم وانعكاسه على الوطن العربى » مجلة النفط والتنمية العراقية ، العدد الرابع ، السنة الاولى ، ١٩٧٦ ، صص ٤ ــ ١٠٠ .

٦٨ ــ **عبده بدوى** ، مدن افريقية ، القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٣ .

٦٩ ــ **عزت حجازى** ، القاهرة ، منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، ١٩٧١ .

٧٠ ــ **عطيات حمدى** ، جغرافية العمران ، الاسكندرية ، ١٩٦٥ .

٧١ ــ **لويس ممفورد** ، المدينة على مر العصور ، أصلها وتطورها ومستقبلها ، **ترجمة وتعليق ابراهيم نصحى** ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٤ .

٧٢ ــ **ماجد عبد الله الشمسى** ، الحضر ، بغداد ، مطبعة شفيق ، ١٩٦٨ .

٧٣ ــ **محمد الجوهرى** ، ظاهرة التحضر بين الادانة والتمجيد ، مقدمة الترجمة العربية لكتاب **جيرالد بريز** ، مجتمع المدينة فى البلاد النامية ، ترجمة محمد الجوهرى ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ١ ــ ١٩ .

٧٤ ــ ــــــــــــــــ ، « البناء الطبقى فى الدول النامية » فى : **السيد الحسينى وآخرون** ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ص ٢٠١ ــ ٣٢٨ .

٧٥ ــ ــــــــــــــــ وآخرون ، دراسات فى علم الاجتماع الريفى والحضرى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٩ .

٧٦ ــ **محمد الرميحى** ، البترول والتغير الاجتماعى ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

٧٧ — **محمد المعتصم مصطفى** ، المدن الاسلامية وخصائصها ، حولية كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية ، جامعة قطر ، السنة الثانية ، ١٩٨٠ ، ص ص ٢١٧ — ٢٥٤ .

٧٨ — **محمد حسنين مكاوى** ، التقدم العمرانى لمدينة القاهرة والمدن المصرية الاخرى ، القاهرة ، مطبعة مصر ، ١٩٣٨ .

٧٩ — **محمد حلمى جعفر** ، « آفاق للعمران » فى كتاب دولة البحرين منشورات معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

٨٠ — **محمد رياض** ، مدن الخليج : تطورها ومشكلاتها المعاصرة ، حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية ، جامعة قطر ، السنة الثانية ، ١٩٨٠ ، ص ص ٧٧ — ١١٦ .

٨١ — **محمد سناسير** ، « مدن ازدهرت فى الصحراء » ، مجلة رسالة اليونسكو ، العدد ١٩٩٠ ، فبراير ١٩٧٨ .

٨٢ — **محمد عبد المنعم نور** ، الحضارة والتحضر ، دراسة أساسية لعلم الاجتماع الحضرى ، القاهرة ، مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٧٠ .

٨٣ — **على اسلام الفار** ، دراسة اجتماعية لمدينة الاسكندرية طبقا لمنهج وارنر ، رسالة دكتوراة ، كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية .

٨٤ — **علياء شكرى** ، « مشكلات أساسية حول الاسرة والتصنيع » ، فى : السيد الحسينى وآخرون ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ص ٤١٩ — ٤٤٥ .

٨٥ — **عمرو محى الدين** ، الآثار الاقتصادية والاجتماعية للاصلاح الزراعى فى مصر ١٩٥٠ — ١٩٧٠ ، أعمال مؤتمر القانون والتفسير الاجتماعى ، أسوان ، ١٩٧٥ .

٨٦ — **عنايات الطحاوى** ، دراسة جغرافية لاقليم الخرطوم ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٦٤ .

٨٧ — **فاروق محمد العادلى** ، حركة التصنيع فى مدينة الخرطوم واثرها فى الحياة الاجتماعية للعمال ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، الاسكندرية ، ١٩٦٤ .

٨٨ — **فتح الله هلول ومحمد رياض الفنيمى** ، الآثار الاجتماعية والاقتصادية للتصنيع على المناطق الريفية بمركز كفر الدوار — بحيرة ، مطبعة جامعة الاسكندرية ، ١٩٦١ .

٨٩ ــ **فون جرونباوم** ، حضارة الاسلام ، **ترجمة عبد العزيز جاويد** ، القاهرة ، مكتبة مصر ، بدون تاريخ .

٩٠ ــ **فيلب هاوزر** ، مشكلات التحضر السريع ، **ترجمة السيد الحسيني** ، فى : **محمد الجوهرى وآخرون** ، دراسات فى علم الاجتماع الريفى والحضرى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٩ ، ص ص ٩١ ــ ١١٩ .

٩١ ــ **كريمة كريم** ، « توزيع الدخول بين الحضر والريف » أعمال المؤتمر العلمى السنوى الثالث للاقتصاديين المصريين ، مارس ١٩٧٨ .

٩٢ ــ **كمال عبد الحميد الزيات** ، تقسيم العمل الاجتماعى فى المدينة المعاصرة على ضوء نظرية دوركايم بالتطبيق على مدينة حلوان بالمجتمع المصرى ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٣ .

٩٣ ــ **كمال موسى محمد** ، منطقة شبرا الخيمة الصناعية ، دراسة فى الجغرافيا الاقتصادية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٦٢ .

٩٤ ــ **محمد عاطف غيث** ، علم الاجتماع الحضرى ، مدخل نظرى ، الاسكندرية ، دار الكتب الجامعية ، ١٩٧٢ .

٩٥ ــ ــــــــــــــ ، القرية المتغيرة ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

٩٦ ــ **محمد فؤاد حجازى** ، الاسرة والتصنيع ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

٩٧ ــ **محمد غلاب ويسرى الجوهرى** ، جغرافية الحضر : دراسة فى تطور الحضر ومناهج البحث فيها ، دار الكتب الجامعية ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

٩٨ ــ **محمد محمود الحناوى** ، الفروق الريفية ــ الحضرية فى علم الاجتماع ، دبلوم معهد العلوم الاجتماعية، كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٧٠ .

٩٩ ــ **محمد محمود الديب** ، التصنيع كأساس للتخطيط فى منطقة القاهرة ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٦٢ .

١٠٠ ــ **محمود جلال الدين الجمل** ، بورسعيد : دراسة العوامل الجغرافية الخاصة بنشأتها وتطورها ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٥٢ .

١٠١ ــ **محمود عبد الفضيل** ، التحولات الاقتصادية والاجتماعية فى الريف المصرى ١٩٥٢ ــ ١٩٧٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٨ .

١٠٢ ــ **محمود عوده** ، أساليب الاتصال والتغير الاجتماعى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

١٠٣ ــ ــــــــــــــ ، الهجرة الى مدينة القاهرة ، المجلة الاجتماعية القومية ، ١٩٧١ (عدد خاص) .

١٠٤ ــ ــــــــــــــ ، الفلاحون والدولة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

١٠٥ ــ **محمود فهمى الكردى** ، النمو الحضرى : دراسة لمظاهر الاستقطاب الحضرى فى مصر ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٧ .

١٠٦ ــ **مرزوق عبد الرحيم** ، « الهجرة الريفية ــ الحضرية فى مصر : انماطها ودوافعها والآثار المترتبة عليها » ، الحلقة الدراسية الاولى لعلم الاجتماع الريفى ، منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

١٠٧ ــ **مصطفى الخشاب** ، الاجتماع الحضرى ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٦ .

١٠٨ ــ **منذر ابراهيم الوزير** ، النمو الحضرى لمدينة غزة ونتائجه الاجتماعية ، الاسكندرية ، دبلوم معهد العلوم الاجتماعية ، كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٦٧ .

١٠٩ ــ **نادر الفرجانى** « استخدام الايدى العاملة فى الدول العربية الخليجية » المعهد العربى للتخطيط ، الكويت ، ١٩٧٩ .

١١٠ ــ **نهى فهمى** ، القرية المتحضرة ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، ١٩٧٤ .

obeikandl.com

١١١ ــ **هنرى مندار** ، « علم الاجتماع الريفى » **ترجمة علياء شكرى** ، فى : **محمد الجوهرى وآخرون** ؛ دراسات فى علم الاجتماع الريفى والحضرى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ص ١٥٩ ــ ١٨٥ .

١١٢ ــ **هيفاء الشنوانى** ، « ظاهرة النمو الحضرى » فى اعمال المؤتمر الرابع للشئون الاجتماعية ؛ طرابلس ، ١٩٧١ .

١١٣ ــ **ياقوت الحموى** ، معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٢ .

obeikandl.com

obeikandl.com

ثانيا : باللغة الانجليزية

(أ) المدينة بين التطور التاريخى والنظرية الاجتماعية :

1. Abrams; P; «Towns and Economic Growth : Some Theories and Problems»; in Abrams; P; and Wrigley (eds.); Towns in Societies; Cambridge University Press; 1978; pp. 9-34.
2. Beckinsale; R; and Houston; J; Urbanization and Its Problems; Basil Blackwell; 1968.
3. Bergel; Urban Sociology; McGrow-Hill Book Company; New York; 1955.
4. Berry; B; The Human Consequences of Urbanization : Divergent Paths in the Urban Experience of the Twentieth Century; 1973.
5. Boskoff; A; The Sociology of Urban Regions; New York : Appleton-Century Crofts; 1962.
6. Bridenbaugh; C; Cities in Revolt; Knopf; New York; 1955.
7. Botero; G; «The Greatness of Cities»; in Botero; G; The Reason of State and the Greatness of Cities; London; Routledge & Kegan Paul; 1956.
8. Childe; G; What Happened in History; Penguin Books; London; 1964.
9. Cottrell; W; Energy and Society; McGraw-Hill; 1955.
10. Daire; M; «Tbe Pattern of Urban Growth»; in Murdock; G; (ed.); Studies in the Science of Society; New Haven : Yale University Press; 1953 : pp. 75-91.
11. Davis; K; «The Origin and Growth of Urbanization in the World»; American Journal of Sociology; 60; March; 1955; pp. 426-440.
12. ———; World Urbanization; 1950-1970; Berkeley; Univ. of California; 1969.
13. ———; «The Urbanization of the Human Population»; in Breese; G; (ed.); The Cit yin Newly Developing Countrics Princeton University Press; 1972; pp. 5-20.

obeikandl.com

14. De Coulanges; F; The Ancient City; Doubleday; Garden City; New York; 1956.

15. Dickinson; K; The West European City : A Geographical Interpretation; London; 1951.

16. Dimbley; G. W; (ed.) Man, Settlement, and Urbanism; Schenkman; Cambridge; Mass; 1972.

17. Dobb; M; Studies in the Development of Capitalism; London; 1946.

18. Dopsch; A; The Economic and Social Foundations of European Civilization; London; 1954.

19. Epstein; A; «Urbanization and Social Change in Africa»; in Breese; G; (ed.) The City in Newly Developing Countries; Princeton Univ. Press; 1972; pp. 246-287.

20. Firey; W; Man. Mind and Land; Free Press; 1960.

21. George; D; London Life in the Eighteenth Century; Horchbooks; New York; 1964.

22. Germani; G; «Migration and Acculturation»; in Hauser; P; (ed.); Hand-book for Social Research in Urban Areas; Paris; 1965; pp. 159-178.

23. Gibbon; E; The Decline and Fall of the Roman Empire; Dell; New York; 1952.

24. Gillin; P; The Distribution of Occupations as a City Yardstick; King's Crown; 1951.

25. Glass; D; The Town in a Changing Civilization; London; John Lane; 1953.

26. Gutkind; P; Urban Antbropology; Van Gorcum & Comp. The Netherlands; 1974.

27. Handlin; O; and Burcbard; J; (eds.) The Historian and the City; Cambridge; Mass; 1963.

28. Hatt; P; and Reiss; A; (eds.); Cities and Society; Free Press; Glencoe; I 11; 1968.

29. Hauser; P; «Observations on the Urban-Folk and Urban-Rural Dichotomies as Forms of Western Ethnocentrism»; in Hauser; P;

and Schore; L; (eds.); The Study of Urbanization; New York; 1965; pp. 503-518.

30. Hawley; A; Human Ecology; New York; 1956.
31. ————; Urban Society; Ronald Press; New York; 1971.
32. Hiorns; F; Town Building in History; Harrap; London; 1956.
33. Hoover; E; and Vernon; R; Anatomy of a Metropolis; Cambridge; Harvard University Press; 1959.
34. Hoselitz; B; «Generative and Parasitic Cities»; Economic Development and Cultural Change; 3; 1955; pp. 278-194.
35. ————; «The Role of Cities in the Economic Growth of Underdeveloped Countries»; in Breese; G; The City in Newly Developing Countries; Princeton University Press; 1972; pp. 330-341.
36. Jones; E; Towns and Cities; Oxford University Press; 1970.
37. July R; A History of the African People; Scribner's; New York; 1970.
38. Kerr; C; et al; Industrialism and Industrial Man; Cambridge Univ. Press; 1960.
39. Lampard; E; «The History of Cities in Economically Advanced Areas»; Economic Development and Culture Change; Vol. 3; 1955.
40. ————; «Historical Aspects of Urbanization»; in Hauser; P; and Schnore; L; (eds.) The Study of Urbanization; John Wiley & Sons; New York; 1965.
41. Lenski; L; Human Society; McGraw-Hill; New York; 1970.
42. Lewis; O; «Further Observations on the Folk-Urban continuum and Urbanization With Special Reference to Mexico City»; in Hauser; P; and Schnore; L; (eds.); The Study of Urbanization John Wiley & Sons; New York; 1965.
43. Lopez; R; «The Cross roads within the Wall»; in Handlin; O; and Burchard; J; (eds.); The Historian and the City; Cambridge; Mass; 1963.
44. Mann; P; An Approach to Urban Sociology; Routledge and Kegan Paul; London; 1968.
45. Marx; K; Capital; New York; Modern Library; 1954.

46. Mayer; P; «Labour Migracy and the Social Network»; in Holleman; Y; (ed.) Problems of Transition; London; 1964; pp. 21-34.

47. Mills; C. Wright. The Power Elite; New York; Oxford University Press; 1959.

48. Miner; H; The Primitive City of Timbuctoo; Doubleday; Anchor; New York; 1965.

49. Moore; W; The Impact of Industry; Prentice-Hall; 1965; Chaps 3; 4.

50. Morris; R; Urban Sociology; George Allen and Unwin LTD; London; 1968.

51. Mumford; L; The City in History; Its Transformation and Its Prospects; Harcaurt & Brace; and World; New York; 1961.

52. Mundy; J; and Reisenberg; P; The Medieval Town; Van Nostrand; New York; 1958.

53. Nelson; J; «The Urban Poor Disruption or Political Integration in Third World Cities ?»; World Politics; XGII; 1970; pp. 393-414.

54. Pahl; K; «The Rural-Urban Conenuum»; in Pahl; K; (ed.); Readings in Urban Sociology; Pergman Press; London; 1968; pp. 280-288.

55. Palen;J; The Urban World; Mc Graw Hill Book Company; New York; 1975.

56. Pearse; A; «Metropolis and Peasant : The Expansion of the Urban-Industrial Complex and the Changing Rural Structure»; in Shanin; T; (ed.); Peasant and Peasant Societies; Penguin; 1971; pp. 69-80.

57. Pirenne; H; Economic and Social History of Medieval Europe; Harcourt; New York; 1936.

58. ———; Medieval Cities; Princeton University Press; N. Y ; 1939.

59. Polanyi; K; et al; Trade and Market in the Early Empires : Economic in History and Theory; Glencoe; I 11; 1957.

60. Queen; S; and Carpenter; D; The American City; N. Y; Macmillan Hill Book Co; 1958.

61. Redfield; R; «The Folk Society»; in Hatt; P; and Reiss; A; Yr; (eds.): Cities and Society; Free Press; Glencoe; Inc; N. Y; 1968; pp. 30-45.

62. Reissman; L; The Urban Process; London : 1964.
63. Robert; A; The Evolution of Urban Society : Early Mesopotamia and Prehistoric Mexico; Chicago : Aldine Publishing Company; 1965.
64. Robert; B; and Willey (eds.); Courses Toward Urban Life; Chicago Aldine Publishing Company; 1962.
65. Robson; W; Great Cities of the World; London; 1957.
66. Rodwin; L; (ed.); The Future Metropolis; New York; George Broziller; 1961.
67. ———; Nations and Cities; Houghton-Mifflin; 1970.
68. Rose; H; The City; Lippincott; Chicago; 1955.
69. Rostovtzeff; M; «Cities in the Ancient World»; in Ely; K; (ed.) Urban Land Economics; Arn Arbor; 1952.
70. Saalman; H; Medieval Cities; Broziller; New York; 1968.
71. Sayre; W; and Polsby; N; «American Political Science and the Study of Urbanization»; in Hauser; P; and Schnore; L; (eds.) The Study of Urbanization; John Wiley & Sons; Inc; 1965; pp. 115-156.
72. Schnore; L; The Urban Scene; Free Press; New York; 1965; Chap. 16.
73. ———; «On the Spatial Structure of Cities in the two Americans»; in Hauser; P; and Schnore; L; (eds.); The Study of Urbanization; John Wiley; Sons; New York; 1965; pp. 347-397.
74. Sjoberg; G; The Preindustrial City; Glencoe; II 1; 1960.
75. ———; «Cities in Developing and in Industrial Societies : A Cross Cultural Analysis»; in Hauser; P. and Schnore; L; (eds.) The Study of Urbanization; John Wiley & Sons; New York; 1965.
76. ———;The Rise and Fall of Cities : A Theoretical Perspective; in Breese; G; (ed.) The City in Newly Developing Countries; Princeton University Press; 1972; pp. 219-231.
77. Sovani; N; «The Analysis of Overurbanization»; in Breese; G; (ed.); The City in Newly Developing Countries; Princeton University Press; 1972; pp. 322-330.
78. Taeuber; I; «Population Growth in Less Developed Countries»; in Hauser; P; (ed.) The Population Dilemma; Prentice-Hall; Englewood Cliffs; J. N; 1969.

79. Tangri; S; «Urbanization; Political Stability; and Economic Growth»; in Finkle; J; and Gable; R; (eds.); Political Development and Culture Change; John Wiley & Sons; New York; 1971; pp. 212-226.

80. Theodorson; G; Studies in Human Ecology; New York; 1961.

81. Turner; R; The Great Cultural Traditions; vol. 1; The Ancient Cities especially; Chaps. 3-4; 9-10; New York; 1941.

82. Weber; M; The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism; New York; 1948.

83. Weber; M; The City; Free Press; New York; 1958.

84. Weiner; M; «Urbanization and Political Protest»; Civilization ; XVII; 1967; pp. 44-52.

85. Wirth; L; «Urbanism as a way of Life»; in Hatt; P; and Reiss; A; (eds.); Cities and Society; Free Press; 1957.

(ب) المدينة فى الدول النامية :

86. Ando; H; Peking; N. Y; 1968.

87. Bantom; M; «Social Alignment and Identity in a West African City»; in Kuper; H; (ed.) Urbanization and Migration in West Africa; Univ. of Calif. Press; Berkely; 1966.

88. Blake; G; «Urbanization in North Africa : Its Nature and Consequences»; in Dwyer; D; (ed.) The City in the Third World ; Pitman Press; London; 1974; pp. 67-80.

89. Bopegomage; A; Delhi : A Study in Urban Sociology ; Bombay; 1957.

90. Breese; G; (ed.) The City in Newly Developing Countries ; Princeton University Press; 1972.

91. Brush; J; «The Morphology of Indian Cities»; in Turner; K; (ed.) India's Urban Future; Berkely : University of California Press ; pp. 53-64.

92. Bulsara; J; Problems of Rapid Urbanization in India; London; 1964.

93. Durand; J; and Pelaez; «Patterns of Urbanization in Latin America»; in Breese; G; (ed.) The City in Newly Developing Countries; Princeton University Press; 1972; pp. 172-196.

94. Dwyer; D; (ed.) The City in the Third World; The Pitman Press; London; 1974.

95. Epstein; A; «Urban Communities in Africa» in Cluckman; (ed.); Closed Systems and Open Minds : The Limits of Naivety in Social Anthropology; Chicago; 1964; pp. 83-102.

96. Frank; A; Capitalism and Underdevelopment in Latin America; New York; Monthly Review Press; 1969.

97. ———; «Instability and Integration in Urban Latin America»; in Frank; A; Latin America : Underdevelopment or Revolution : Monthly Review Press; N. Y; 1969; pp. 274-295.

98. Foster; G; and Kemper; K; (ed.) Anthropologists in Cities; Little; Brown; Boston; 1974.

99. Freilich; M; (ed.) Marginal Natives : Anthropologist at Work; New York; 1970.

100. Gakenheimer; R; «The Paruvian City of the sixteeith Century»; in Beyer; G; (ed.) The Urban Explosion in Latin American; Cornell University Press; Ithaca; New York; 1967; pp. 44-60.

101. Gibbs; J; (ed.) Peoples of Africa; New York; 1965.

102. Ginsburg; N; Urban Geography and (Non-Western) Areas; in Hauser; P; and Schnore; L; (eds.) The Study of Urbanization; John Wiley & Sons; New York; 1964; pp. 311-376.

103. Gist; N; «Urbanism in India»; in Fava; S; (ed.) Urbanism in World Perspective; Thomas Crowell; 1968.

104. Gutkind; P; Urban Anthropology; Van Gorcum; The Netherlands; 1974.

105. Hall; R; «The Cities of Japan : Notes on Distribution and Inherited Forms»; in Abrams; P; and Wrigley; E; (ed.) Towns in Societies; Cambridge University Press; 1978; pp. 130-145.

106. Hamdan; G; «Capitals of New Africa»; in Breese; G; (ed.) The City in Newly Developing Countries; Princeton University Press; 1972; pp. 146-161.

107. Hance; W; Population; Migration and Urbanization in Africa; Columbia University Press; N. Y; 1970.

108. Hanna; W; and Hanna; J; Urban Dynamics in Black Africa; Aldine-Atherton; Chicago; 1971.

109. Hauser; P; Urbanization in Asia and the Far East; UNESCO; 1956.

110. ———; (ed.) Urbanization in Latin America; UNESCO ; Paris; 1961.

111. Hodgkin; T; Nationalism in Colonial Africa; Muller; London; 1956.

112. Hoselitz; B; «The Cities of India and Their Problems»; in Turner; R; (ed.) India's Urban Future; Berkely : University of California; 1962; pp. 425-443.

113. ———; and Moore; W; (eds); Industrialization and Society; UNESCO : Mouton; Paris; 1963.

114. Keyfitz; N; «Political-Economic Aspects of Urbanization in South and Southeast Asia»; in Hauser; P; and Schnore L; (eds.) The Study of Urbanization; John Wiley; New York; 1965 pp. 265-310.

115. Kropf-Askari; Yoruba Towns and Cities; London; 1969.

116. Kuper; H; (ed.) Urbanization and Migration West Africa; Univ. of Calif, Press; Berkeley; 1966.

117. Leeds; A; (ed.) Rio's Favelas; University of Texas Press; 1970.

118. ———; and Leeds; E; «Brazil and the Myth of Urban Rurality : Urban Experience; Work and Values in Squatments of Rio De Joneiro and Lima»; in Field; A; (ed.); City and Country in the Third World; Cambridge; Mass; 1970; pp. 225-242.

119. Leslie; J; A Social Survey of Dar es Salaam; Oxford University Press; London; 1963.

120. Lewis; O; The Children of Sanchez; New York; Random House; Alfred A. Knopf; 1961.

121. Lloyd; P; Africa in Social Change; Penguin Books; Baltimore; 1967.

122. Loockwood; W; The Economic Development of Japan; Princeton University Press; 1964.

123. Mabognijie; A; Urbanization in Nigeria; London; 1978.

124. ————; «The Pre-Colonial Development of Yoruba Towns»; in Dwyer; D; (ed.) The City in the Third World ; The Pitman Press; London; 1974; pp. 26-35.

125. Mao Tse Tung; Selected Works of Mao Tse Tung; vol. 5; Peking; Foreign Languages Press; 1977.

126. Miner; H; «The City and Modernization : an Introduction»; in Miner; H; (ed.) The City in Modern Africa; New York; 1967; pp. 1-20.

127. Morse; R; «Latin American Cities : Aspects of Function and Structure»; in Friedmann; J; (ed.) Regional Development and Planning; Cambridge; 1964 pp. 361-381.

128. ————; «The Heritage of Latin America»; in Hartz; L; (ed.) The Founding of New Societies; New York; 1964; pp. 123-177.

129. ————; «Recent Research on Latin American Urbanization : A Selective Survey with Commentary»; in Breese; G; (ed.) The City in Newly Developing Countries; Princeton University Press; 1972; pp. 475-506.

130. Murphy; R. Shanghai : Key to Modern China; Harward Univ-Press; Cambridge; Mass; 1958.

131. ————; «Urbanization in Asia»; in Breese; G; (ed.) The City in Newly Developing Countries; Princeton University Press; 1972; pp. 58-75.

132. Oliver; R; and Mathew; G; (eds.) History of East Africa; Oxford; 1963.

133. Richman; M; Industrial Society in Communist China; N. Y; Random House; 1959.

134. Rotberg; R; and Mazrui (eds.) Protest and Power in Black Africa; New York; 1970.

135. Rycroft; W; and Clemmer; M; A Study of Urbanization in Latin America; New York; 1962.

136. Shack. W; «Urban Tribalism and the Cultural Process of Urbanization in Ethiopia»; in Southall; A; and Bruner E; (eds.) Urban Anthropology; Chicago; 1966; pp. 113-128.

137. Sjoberg; G; «Cities in Developing and in Industrial Societies : A Cross-Cultural Analysis» in Hauser; P; and Schnore; L; (eds.) The Study of Urbanization; John Wiley; New York; 1965; pp. 208-264.

138. Smith; L; «Urbanization in Latin America» in Anderson; N; (ed.) Urbanism and Urbanization; Leiden; 1964; pp. 127-142.

139. Southhall; A; «Determinants of the Social Structure of African Urban Populations»; in Forde; D; (ed.) Social Implications of Industrialization and Urbanization in Africa South of the Sahara; Paris; 1956; pp .557-578.

140. ———; Social Change in Modern Africa; London; Oxford University Press; 1969.

141. Taeuber; I; «Population and Labor Force in the Industrialization of Japan»; in Kuznets; S; and Moore; W; (eds.) Economic Growth : Brazil; India and Japan; Durbam; 1955; pp. 318-342.

142. Tangri; S; «Urbanization, Political Stability and Economic Growth»; in Finkle; J; and Gable; R; (eds.) Political Development and Social Change; John Wiley & Sons; Inc; 1971; pp. 212-228.

143. Turner; J; «Squatler Settlements in Developing Countries»; in Moynihan; D; (ed.) Toward a National Urban Policy; Basic Books; N. Y; 1970; pp. 256-257.

144. Ullman; M; «Cities of Mainland China : 1953-1959»; in Breese; G; (ed.) The City in Newly Developing Countries; Princeton University Press; 1972; pp. 81-103.

145. United Nations Economic Commission For Africa; World Population Prospects 1965-1980; Addis Ababa; 1969.

146. United Nations EconomicCommission For Africa; Demographic Handbook of Africa; Addis Ababa; 1971.

147. Wolfe; W; «Some Implications of Recent Changes in Urban and Rural Settlement Patterns in Latin America»; in V. N; World Population Conference; 1965 (A. 8/1/E 66).

(جـ) المدينة فى دول الشرق الاوسط :

148. Abu-Lughod; J; «Urban-Rural Differences as a Function the Demographic Transtiion : Egyptian Data and an Analytical Model»; American Journal of Sociology; 69; 1963; pp. 476-490.

149. ———; «Urbanization in Egypt»; Economic Development and Cultural Change; 13 (1965); pp. 313-343.

150. ———; «Tale of Tow Cities : The Origins of Modern Cairo»; Comparative Studies in Society and History; 1965; pp. 429-457.

151. ———; «Varieties of Urban Experience; Coexistence and Coalescence in Cairo»; in Lipidus; I; (ed.) Middle Eastern Cities ; Berkeley; 1969.

152. ———; «Rural Migration and Politics in Egypt»; in Antoun; R; and Harik; I; (eds.) Rural Pural Politics and Social Change in the Middle East; Bloomington; Ind; 1972.

153. ———; «Migrant Adjustment to City Life : The Egyptian Case»; in Breese; G; (ed.) The City in Newly Developing Countries; Princeton University Press; 1972; pp. 376-388.

154. Antoun; R; and Harik; I; (eds.) Rural Politics and Social Change in the Middle East; Bloomington; Ind; 1972.

155. Baer; G; Population and Society in the Arab East; London ; 1964.

156. ———; Studies in Social History of Modern Egypt; Chicago; 1969.

157. Berger; M; Bureaucracy and Society in Modern Egypt; Princeton University Press; 1956.

158. Berry; B; The Human Consequences of Urbanization; London; 1971.

159. Bharier; J; «Note on tbe Population of Iran; 1900-1966»; Population Studies; 22 (1968); pp. 273-279.

160. Clarke; J; «Introduction»; in Clarke; J; and Fishes; W; (eds.) Population of the Middle East and North Africa; London; 1972.

161. Costello; V; Kashan : A City and Region of Iran; London; 1976.

162. ———; Urbanization in the Middle East; Cambridge University Press; London; 1977.

163. Davis; K; and Golden; H; «Urbanization and the Development of Pre-Industrial Areas»; in Halt; P; and Reiss; Jr. (eds.) Cities and Society; Free Press; N. Y; 1957; pp. 120-140.

164. Dewdney; J; «Turkey : Recent Population Trends»; in Clork; J; and Fisher; W; (eds.) Population of the Middle East and North Africa; London; 1972; pp. 48-65.

165. Dodd; P; «Family Honour and the Forces of Change in Arab Society»; International Journal of Middle East Studies; 4 (1973); pp. 40-54.

166. English; P; City and Village in Iran : Settlement and Economy in the Kirman Basin; London; 1966.

167. Fernea; R; «Land Reform and Ecology in Post-Revolutionary Jroq»; Economic Development and Cultural Change; 17; 1969; pp. 356-381.

168. French; G; and Hill; A; Kuwait : Urban and Medical Ecology; Heidelberg; 1971.

169. Gibb; H; Islamic Society and the West; London; 1950.

170. Goitein; S; D; A Mediterranean Society : The Jewish Community of the Arab World; vol. I : Economic Foundations; Cambridge; Mass; 1967.

171. ———; «Cairo : An Islamic City in the Light of the Geniza Documents»; in Lapidus; I; (ed.) Middle Eastern Cities; Berkeley and Los Angeles; 1969; pp. 90-103.

172. Graber; O; «The Illustrated Maqamat of the Thirteenth Century : The Bourgoisie and the Arts»; in Hourani; A; and Stern; S; (eds.) The Islamic City; London; 1970; pp. 8-18.

173. Gulick; J; Tripoli : A Modern Arab City; Cambridge; Mass : 1967.

174. Hacker; J; Amman; University of Durham; 1960.

175. Halpern; M; «Egypt and the New Middle Class»; Comparative Studies in Society and History; 1967; pp. 97-108.

176. Hamdan; G; Studies in Egyptian Urbanism; Cairo; 1959.

177. Harik I; «The Impact of the Domestic Market on Rural-Urban Relations in the Middle East»; in Antoun; R; and Harik; I; (eds.) Rural Politics and Social Change in the Middle East; Bloomington; Ind; 1972; pp. 345-349.

178. Hartley; R; «Libya : Economic Development and Demographic Responses»; in Clarke; J; and Fisher; W; (eds.) Population of the Middle East and North Africa; London; 1972; pp. 242-273.

179. Hershlag; Z; Introduction to the Modern Economic History of the Middle East; Leiden; 1964.

180. Hill; A; «The Gulf States : Petroleum and Population Growth»; in Clarke; J; and Fisher; W; (eds.) Population of the Middle East and North Africa; London; 1972; pp. 244-255.

181. Hihi; p; History of the Arabs From the Earliest Times to the Present; London; 1960.

182. Hourani; A; «The Islamic City in the Light of Recent Research»; in Hourani; A; and Stern; S; (eds.) The Islamic City; London; 1970.

183. Ihrahim; S; «Urbanization in the Arab World»; Population Bulletin of the United Nations Economic Commission to Western Asia; 7 (1974); pp. 74-124.

184. Issowi; C; The Economic History of the Middle East; Chicago; 1966.

185. ———; «Economic Change and Urbanization in the Middle East»; in Lapidus; I; (ed.) Middle Eastern Cities; University of California Press; 1969; pp. 116-130.

186. Jacobs; N; The Sociology of Development : Iran as an Asian Case Study; New York; 1966.

187. Jansen; C; «Social Aspects of Internal Migration»; in Jackson; J; Migration; Cambridge University Press; 1969.

188. Khalaf; S; and Konstod; P; Hamra of Beirut : A Case of Rapid Urbanization; Leiden; 1973.

189. Khuri; F; «Sectarian Loyalty Among Rural Migrants in Two Lebanese Suburbs : A Stage Between Family and National Allegiance»; in Antoun; R; and Harik; I (eds.) Rural Politics and Social Change in the Middle East; Bloomington; Ind; 1972; pp. 315-334.

190. Lapidus; I; Middle Eastern Cities; University of California Press; 1969.

191. Lawless; R; «Iraq : Changing Population Patterns»; in Clarke; J; and Fisher; W; (ed.) Population of the Middle East and North Africa; London; 1972.

192. Lerner; D; The Passing of Traditional Society; Modernising of Middle East; London; 1964.

193. Levy; R; The Social Structure of Islam; Cambridge; 1962.

194. Little; K. Urbanization as a Social Process; London; 1974.

195. Mansur; F; Bodrum : A Town in the Aegean; Leiden; 1972.

196. McGregor; R; «Saudi Arabia : Population and the Making of a Moderate State»; in Clark; J; and Fisher; W; (eds.) Population of the Middle East and North Africa; London; 1972; pp. 170-186.

197. Potersen; K; «Demographic Conditions and Extended Family Households : Egyptian Data»; Social Forces; 1968; pp. 531-537.

198. ———; «Villagers in Cairo : Hypothese Versus Data»; American Journal of Sociology; 77 (1971); pp. 560-573.

199. Prothro; T; and Diab; L; Changing Family Patterns in the Arab East; American University of Beirut; 1974.

200. Stern; S; «The Constitution of the Islamic City»; in Hourani; A; and S; (eds.) The Islamic City; London; 1970; pp. 23-32.

201. Van Nieuwenhijze; C. A. O; Social Stratification and the Middle East; Leiden; 1965.

سلسلة علم الاجتماع المعاصر

صدر منهـــا :

الكتاب الأول :

ميادين علم الاجتماع : اختيار وترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعليـــاء شكرى ومحمود عودة ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، دار المعـــارف ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب الثانى :

نظرية علم الاجتماع : تأليف نيقولا تيماشيف ، ترجمة الدكاترة محمود عودة ومحمد الجوهرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، دار المعارف ، الطبعة السادسة ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

الكتاب الثالث :

أساليب الاتصال والتغيير الاجتمـــاعى : تأليف الدكتـــور محمود عوده ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

الكتاب الرابع :

تمهيد فى علم الاجتماع : تأليف بوتومور ، ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، دار المعـــارف ، الطبعـــة الخامسة ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب الخامس :

مجتمع المصنع : دراسة فى علم اجتماع التنظيم : تأليف الدكتور محمد على محمد ، الهيئة العامة للكتاب بالاسكندرية ، ١٩٧٢ .

الكتاب السادس :

الصفوة والمجتمع : تأليف بوتومور ، ترجمة الدكاترة محمـــد الجـــوهرى وعلياء شكرى والسيد الحسينى ومحمد على محمد ، الطبعـــة الثانيـــة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

الكتاب السابع :

الطبقات فى المجتمع الحديث : تأليف بوتومور ، ترجمـــة الدكاترة محمـــد الجوهرى وعلياء شكرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

obeikandi.com

الكتاب الثامن :

علم الاجتماع الفرنسى المعاصر : تأليف الدكتورة علياء شكرى ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب التاسع :

قراءات معاصرة فى علم الاجتماع : للدكاترة علياء شكرى ومحمد على محمد ومحمد الجوهرى ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب العاشر :

دراسات فى التنمية الاجتماعية : تأليف الدكاترة السيد الحسينى ومحمد على محمد وعلياء شكرى ومحمد الجوهرى ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب الحادى عشر :

مشكلات أساسية فى النظرية الاجتماعية : تاليف جون ركس ، ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى ومحمد سعيد فرح ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٧٣ .

الكتاب الثانى عشر :

التغير الاجتماعى : تاليف الدكتور محمد الجوهرى وآخرون ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، ١٩٨١ .

الكتاب الثالث عشر :

دراسة علم الاجتماع : اختيار وترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب الرابع عشر :

علم الاجتماع الريفى والحضرى ، للدكتور محمد الجوهرى والدكتورة علياء شكرى ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

الكتاب الخامس عشر :

مقدمة فى علم الاجتماع : تأليف الكس انكلز ، ترجمة وتقديم الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى والسيد الحسينى ومحمد على محمد ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب السادس عشر :

مقدمة فى علم الاجتماع الصناعى ، تأليف الدكتور محمد الجوهرى ، دار الكتاب للتوزيع ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب السابع عشر :

علم الفولكلور : الجزء الاول ، تأليف الدكتور محمد الجوهرى ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب الثامن عشر :

النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم : تأليف الدكتور السيد الحسينى ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب التاسع عشر :

مصادر دراسة الفولكلور العربى ، اشراف الدكتور محمد الجوهرى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

الكتاب العشرون :

الدراسة العلمية للمعتقدات الشعبية ، اشراف الدكتور محمد الجوهرى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

الكتاب الحادى والعشرون :

علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث : تأليف الدكتور محمد الجوهرى ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب الثانى والعشرون :

علم الفولكلور ، الجزء الثانى ، دراسة المعتقدات الشعبية : تأليف الدكتور محمد الجوهرى ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

الكتاب الثالث والعشرون :

بعض ملامح التغير الاجتماعى الثقافى فى الوطن العربى ، دراسات ميدانية لثقافة بعض المجتمعات المحلية فى المملكة العربية السعودية ؛ تأليف الدكتورة علياء شكرى ، الطبعة الاولى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب الرابع والعشرون :

التراث الشعبى المصرى فى المكتبة الأوربية : تأليف الدكتورة علياء شكرى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب الخامس والعشرون :

الاتجاهات المعاصرة فى دراسة الاسرة : تأليف الدكتورة علياء شكرى ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

obeikandl.com

الكتاب السادس والعشرون :

دراسات معاصرة فى علم الاجتماع : تأليف الدكتورة علياء شكرى ، دار المعارف ، القاهرة ، تحت الطبع .

الكتاب السابع والعشرون :

عادات الطعام فى الوطن العربى : تأليف الدكتورة علياء شكرى ، تحت الطبع .

الكتاب الثامن والعشرون :

الفلاحون والدولة : تأليف الدكتور محمود عودة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب التاسع والعشرون :

تاريخ علم الاجتماع : الجزء الأول : تأليف الدكتور محمد على محمد ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٧٩ .

الكتاب الثلاثون :

علم الاجتماع والمنهج العلمى : تأليف الدكتور محمد على محمد ، الطبعة الاولى ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٧٩ .

الكتاب الحادى والثلاثون :

أصول علم الاجتماع السياسى : تأليف الدكتور محمد على محمد ، الطبعة الاولى ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٠ .

الكتاب الثانى والثلاثون :

جماعات الفجر مع اشارة لفجر مصر والبلاد العربية : تأليف الدكتور نبيل صبحى حنا ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

الكتاب الثالث والثلاثون :

الانثروبولوجيا : أسس نظرية وتطبيقات عملية : تأليف الدكتور محمد الجوهرى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

الكتاب الرابع والثلاثون :

علم الاجتماع السياسى : المفاهيم والقضايا : تأليف الدكتور السيد الحسينى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، ١٩٨١ .

الكتاب الخامس والثلاثون :

علم الاجتماع العسكرى : التحليل السوسيولوجى لنسق السلطة العسكرية: تأليف الدكتور أحمد خضر ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

obeikandl.com

الكتاب السادس والثلاثون :

الفكر الاجتماعي : نظرة تاريخية عالمية ، تأليف هاينز موس ، ترجمة الدكتور السيد الحسيني والدكتورة جهينة سلطان العيسى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب السابع والثلاثون :

التنمية والتخلف : دراسة تاريخية بنائية ، تأليف الدكتور السيد الحسيني ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب الثامن والثلاثون :

المدينة : دراسة في علم الاجتماع الحضري ، تأليف الدكتور السيد الحسيني ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب التاسع والثلاثون :

النظرية الاجتماعية المعاصرة : دراسة لعلاقة الانسان بالمجتمع ، تأليف الدكتور على ليلة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب الاربعون :

علم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية ، تأليف الدكتور احمد زايد ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب الحادى والاربعون :

البناء السياسى فى الريف المصرى : تحليل لجماعات الصفوة القديمة والجديدة ، تأليف الدكتور أحمد زايد ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب الثانى والاربعون :

علم الاجتماع الامريكى : دراسة لاعمال تالكوت بارسونز ، تأليف جى روشية ، ترجمة الدكتور محمد الجوهرى والدكتور أحمد زايد ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب الثالث والاربعون :

البنائية الوظيفية فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا : المفاهيم والقضايا : تأليف الدكتور على ليلة ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب الرابع والاربعون :

علم الاجتماع والنقد الاجتماعى : تأليف بوتومور ، ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى والسيد الحسينى وعلى ليلة واحمد زايد ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب الخامس والاربعون :

الاقتصاد والمجتمع فى العالم الثالث : تحرير الن مونتجوى ، ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعلى ليلة واحمد زايد ، دار المعارف ، تحت الطبع .

الكتاب السادس والاربعون :

وقت الفراغ فى المجتمع الحديث : تأليف الدكتـــور محمد على محمد ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨١ .

الكتاب السابع والاربعون :

علم الاجتماع : تأليف جونسون ، ترجمة وتعليق الدكاترة علياء شـــكرى ومحمد الجوهرى وعلى ليلة وأحمد زايد وحسن الخولى . تحت الطبع .

الكتاب الثامن والاربعون :

الريف والمدينة فى مجتمعات العالم الثالث : مدخل اجتمـــاعى ثقافى ، تأليف الدكتور حسن الخولى . تحت الطبع .

الكتاب التاسع والاربعون :

المراة المصرية بين البيت والعمل ، تأليف الدكتور محمـــد ســـلامة آدم ، تحت الطبع .

obeikandl.com